Jurnal Ilmiah **ISLAM FUTURA**
Vol. 19. No. 1, Agustus 2019, 1-48

الإعجاز بين التحليل والتلقّي
لدى علماء القرنين الرابع والخامس

إعداد

عبير عبيد الشبيل

جامعة البلقاء التطبيقية الأردن

Email: *abeerobeid117@yahoo.com*

قصي علي السعودي

قسم تعليم اللغة العربية

كلية التربية جامعة الرانيري الإسلامية الحكومية بندا أتشية

Email: *qusaialys@gmail.com*

Abstract

There are various reasons for our choice of this period of the scientific Arab history: the first is the richness in thought, culture, philosophy and experimentation, following the internationalization of the peoples of the Abbasid Caliphate. The second is the maturity of the individual creative tools of scientists in most fields of knowledge, especially in the linguistic ones which formed the basis from which all Arab sciences sprang. Based on the above, we follow the analytical methods of miracle scholars. The first of these scholars was Ramani, who was interested in individual performances and in rhetorical art in its individuality. The second was Abu Suleiman al-Khattabi, who preoccupied himself with researching in the depths of the problem. The third was Baqalani Abu Bakr Muhammad, the author of the theory of equanimity and inequality. The fourth was judge Abduljabbar who tried to link between the mind and language. The fifth was Abdulqahir Al-Jerjani, the founder of the theory of systems. Indeed each of these scholars has studied the issue of Quranic miracle in a way which suited their methods, and then discussed the ways his views were received in private and in public. We claim that we have paid special attention to the specificity of grammar as a basis, for all of them, for the study of miracles, and none of them has been freed from the study of poetry. However, Al-Jarjani attributed poetry as the necessary basis for the knowledge of miracles, and we did come out with some conclusions which we have noted at the end of our research.

Keywords: *Arab history; linguistic; I'jaz*

Abstrak

Pilihan kami pada periode sejarah ilmiah Arab dilatarbelakangi oleh beberapa alasan. Yang pertama adalah kekayaan pemikiran, budaya, filsafat dan eksperimen, akibat dari akulturasi budaya dari kekhalifahan Abbasiyah. Yang kedua, kematangan

perangkat kreativitas individu para ulama di sebagian besar bidang ilmu pengetahuan, terutama dalam ilmu linguistik yang merupakan dasar pijakan bagi seluruh ilmu-ilmu pengetahuan Arab. Berdasarkan hal di atas, kami menelusuri metode analisis para ulama i'jaz, yang pertama adalah al-Rumani, yang fokus pada kinerja individu dan seni retorika dalam bentuk individualnya; yang kedua Abu Sulaiman al-Khattabi, yang menyibukkan dirinya dengan mencari bagian batin dari illat; yang ketiga Abu Bakar Muhammad al-Baqillani yang mencetuskan teori kesamaan dan perbedaan; keempat al-Qadhi Abdul Jabbar, yang telah berhasil menghubungkan antara pikiran dan bahasa; yang kelima adalah Abdul Qahir al-Jurjani yang mencetuskan teori konstruksi teks (*al-Nazm*). Masing-masing mereka melakukan kajian terhadap I'jaz Alqur'an sesuai dengan metodenya kemudian mencari cara-cara yang dapat diterima pemikiran-pemikirannya oleh orang-orang tertentu dan umum. Kami mengklaim bahwa kami memberi perhatian tentang kekhususan ilmu nahwu sebagai dasar bagi mereka semua dalam mempelajari I'jaz, tidak ada ilmuwan yang terlepas dari mempelajari sya'ir, akan tetapi al-Jurjani menjadikannya sebagai pondasi yang diperlukan untuk mempelajari I'jaz. Kami memiliki kesimpulannya dan telah kami rangkum di akhir penelitian.

Kata kunci: *Sejarah Arab; linguistik; I'jaz*

الإعجاز بين التحليل والتلقّي

لدى علماء القرنين الرابع والخامس

الملخص

يعود اختيارنا لهذه الحقبة من تاريخ العرب العلمي إلى غير سبب؛ الاول هو الغنى في الفكر والثقافة والفلسفة والتجريب؛ في إثر المثاقفة الأممية لشعوب دولة الخلافة العباسية؛ ثانيا نضج الأدوات الفردية الصانعة للإبداع لدى العلماء في معظم حقول المعرفة؛ وعلى الأخص في العلوم اللغوية التي كانت الأساس الذي انطلقت منه العلوم العربية كلها.

وتأسيسا على ما تقدم تتبعنا المناهج التحليلية لعلماء الإعجاز، وأولهم الرماني الذي اهتم بالأداء الفردي والفن البلاغي بصيغته الفردية؛ والثاني أبو سليمان الخطابي الذي شغل نفسه بالبحث في باطن العلة، والثالث كان الباقلاني أبو بكر محمد صاحب نظرية الاستواء والتفاوت، والرابع القاضي عبد الجبار الذي عمل على الربط بين العقل اللغة، وأما الخامس فهو عبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية النظم، فكل واحد من هؤلاء درس قضية الإعجاز القرآني دراسة تناسب منهجه، ثم بحث في السبل التي تؤدي إلى تلقي آرائه لدى الخاصة والعامة.ونزعم أننا تنبهنا إلى خصوصية علم النحو كأساس لهم جميعا في دراسة الإعجاز؛ ولم ينعتق أي عالم من دراسة الشعر، إلا أن الجرجاني خصه بأنه الأساس الضروري لمعرفة الإعجاز.وكان لنا ما نستنتجه، وقد دونا استنتاجاتنا في نهاية البحث.

الكلمات الرئيسية: *تاريخ العرب، العلوم اللغوية ، الإعجاز*

البحث:

تأتي أهمية البحث في قضية "الإعجاز" ضمن الانشغال الخاص للعلماء في معرفة أسرار كتاب الله "القرآن"، وإدراك أسباب تميّزه المعجز، متقدماً على بلاغة أهل البلاغة، مستعلياً على إبداعاتهم في الشعر، كما في النثر، عند القدماء المؤسسين، كما عند المبدعين المتأخرين.

وقد نشأت البلاغة كعلم من علوم اللغة، له من الخصوصية ما يؤهله ليكون علماً مستقلاً، غايته التأسيسية // تمكين المسلم من علوم الدين//.

ولم تقف البلاغة عند الحد الأول لتأسيسها وإنما انشغلت على مستويين. الأول تطوير أدواتها لتتمكن من //التحليل// كأداة، للكشف عن أسرار الإعجاز، والثاني تواصلها مع العلوم الأخرى لتعزيز البحث عن البيان الإلهي المعجز، والكشف عن أسرار الإعجاز.

وتأتي أهمية بحثنا هذا من تحديدنا لطور من أطوار النضج في الفكرة والأداة المنهجية معاً، وهي المدة الواقعة ما بين علي بن عيسى الزماني 386- 994م وإمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني 471هـ 1078م، وهذا الطور كان حافلاً بالجهود التحليلية لنخبة من علماء الإعجاز، والتي وجدناها تستحق المعاينة والدراسة المنهجيتين، وخاصة في مشكلتي: التصور والإجراء، ونقصد بالتصور الدوافع الفكرية التي أثارت عزيمة البلاغيين للانشغال بقضية الإعجاز، وأما ما عنيناه فهو امتلاك الأدوات الفردية التي تمّكن صاحبها من الإيفاء بما عزم عليه، أو تصوره.

فإذا كان تحديد الطور الرماني معياراً مهماً لتأريخ الظاهرة، من خلال دراستها فإن المعيار الآخر الموضوعي لازم عن //الزماني//، وذلك لأن المدة التي حددناها من الرّماني إلى الجرجاني هي الفترة الأغنى في دراسة //الإعجاز//، ونُرجح أن مسببات الغنى في تلك الفترة تعود إلى نضج العلماء المسلمين في القرن الهجري الرابع وإفادتهم من المثاقفة الأممية التي تم التأسيس لها في عهد المأمون 197-212 هـ وخاصة في الترجمة، وهذا أدى بدوره إلى الاستشاطة العلمية فيما تلا عهد المأمون.

وقد فرضت طبيعة البحث هذا الاتجاه نحو ظاهرة الإعجاز لدى علماء المرحلة الزمنية في توجهاتها، لأسباب عديدة أهمها:

الأول هو أن الفترة الواقعة ما بين نهاية القرن الهجري الرابع وما بين الربع الثالث من القرن الخامس كانت غنية بشتى مناحي العلوم، اللغوية، وغير اللغوية، ولا سيما في ظاهرة البلاغة

واتجاه علماء الإعجاز إلى منهجية التحليل، ومحاولاتهم تعميم تحليلاتهم على المستويات غير النخبية، أي إحالة المبحث البلاغي – من خلال الإعجاز القرآني- من مبحث خاص إلى مبحث عام.

الثاني ندرة المباحث الخاصة التي توجهت إلى مؤلفات علماء الإعجاز، وإلى مناهجهم في التحليل، فجلّ الدراسات توقفت عند حدود //البلاغة// كظاهرة من ظواهر اللغة.

الثالث إظهار العلاقة بين المبحث البلاغي عموماً، والإعجاز القرآني خاصة، على أنهما مترابطان، وأن اطراد التقدم في الأول يُفضي إلى نجاح الثاني، وأن نجاح المنهج في الثاني ينقل البلاغة إلى موقع متقدم في جانب آخر، هو "التفلسف".

الرابع بيان الاحتياج من قبل الخاصة //العلماء// لاكتساب //المنهجية// في تحليل ظاهرة الإعجاز الخاصة بالقرآن الكريم، وذلك لإخراج البلاغة من الجمود والتعقيد إلى الآفاق المفتوحة مع العلوم الأخرى.

المهاد **المتقدّم**

من خلال تتبعنا للدراسات التي عاينت مشكلة //الإعجاز//، تبين أن معظم من تصدى لدراسة هذه المشكلة من الباحثين المعاصرين كانوا قد قاموا باستقصاء شامل متكامل لجهود علماء الإعجاز الخمسة: //الزماني، والخطابي، والباقلاني، والقاضي عبد الجبار، والجرجاني عبد القاهر//، وتمّ لهم مكاشفة متونهم فيما تحتويه من آراء بلاغية.

وبما أننا أمام طور زماني ممتد نسبياً من 386 إلى 471 هـ فقد اضطررنا إلى العرض الموجز الدقيق، ليكون وقوفنا على "مناهج التحليل" عند علماء الإعجاز المذكورين وقوفاً دقيقاً هو الآخر، ومما وجدناه لازماً التذكير بأهم الباحثين المعاصرين في هذا المضمار، ونذكر أولاً دراسة د. عبد الكريم الخطيب "إعجاز القرآن"[1] وهو يكشف عن خصائص البلاغة العربية

(1) دار الفكر العربي 1964 طبعة حديثة 1998

ومعاييرها، ثانياً دراسة د.صلاح عبد الفتاح الخالدي "البيان في إعجاز القرآن"[2] ، ثالثاً دراسة د. عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن "مسائل ابن الأزرق"[3] رابعاً دراسة د. أحمد جمال العمري "مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري"[4].

ونلحظ اتجاهاً آخر ثانياً في جهود المعاصرين يتركز على الحقبة المذكورة يتصف بالدقة والعمق، ولعل دراسة د. محمد محمد أبو موسى "الإعجاز البلاغي" دراسة تحليلية تأتي في المقدمة وهو شيخ البلاغيين بجامعة الأزهر[5]، ثانياً نجد دراسة د. كريم الوائلي "الخطاب النقدي عند المعتزلة– قراءة في معضلة القياس النقدي"[6] وفي هذه الدراسة قدم د. الوائلي المقاييس غير البلاغية كالمقياس اللغوي، والمقياس الجمالي، والنقدي، في محاولة منه لإغناء المقياس البلاغي من خارج البلاغة.

ونلحظ عند المعاصرين أيضاً اتجاهاً آخر ثالثاً، يميل إلى التخصيص، فيركز الدراسة حول شخصية محورية من العلماء الذين اهتموا بمشكلة الإعجاز، فثمة دراسة د. عبود زايد عن "الرماني" وهي منشورة بكلية //العربية// بجامعة الأزهر بالقاهرة. وثمة دراسة صبّاح عبيد دراز "البلاغة القرآنية عند الخطابي"[7] عمّق فيها البحث في المنهج التحليلي لدى الخطابي، ورؤيته للفروق الدلالية بين المفردات، وثمة دراسات قامت حول "الباقلاني" وهي كثيرة نذكر منها دراسة د.عبد الرزاق مخلوف "الباقلاني ناقداً أدبياً" وفيها عاين المنهج النقدي للباقلاني أكثر من المنهج البلاغي التحليلي، وثمة دراسات قامت حول القاضي عبد الجبار وأهمها دراسة د. عبد الفتاح لاشين[8]، بلاغة القاضي الجبار في كتاباته القرآنية وأثرها في الدراسات البلاغية التي استغرق فيها في قضية أقسام البلاغة وعلوم البيان والبديع، وثمة دراسات قامت

(2) دار عمار – عمان – 1421 هـ - 2000م

(3) منشورات جامعة القرويين –المغرب+ طبعة دار المعارف– مصر 1990

(4) منشورات دار المعارف– مصر –القاهرة 1982

(5) القاهرة مكتبة وهبة 1997م-1418هـ ط2

(6) القاهرة – مصر العربية للنشر والتوزيع 1997 ط1

(7) مطبعة الأمانة 1986 مصر –القاهرة

(8) دار الفكر العربي للطباعة والنشر – القاهرة 2009

حول الجرجاني، وهي كثيرة، نذكر منها دراسة د. أحمد أحمد بدوي "عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية"[9]، ونستحضر دراسة المفكر التونسي د. حمادي حمود – التفكير البلاغي عند العرب حتى القرن السادس والصادر عن الجامعة التونسية 1994

المنهج **والبنية**

تبدو الحقبة الزمنية التي ابتدأناها بالرماني 386هـ وانتهينا فيها عند الجرجاني 471هـ ممتدة على مستويين: الأول زماني حافل بالأعلام والمباحث اللغوية والقرآنية والبلاغية، والثاني ممتد عمقاً، ونعني ازدهار العلوم الأخرى في الطب والتجريب والتفلسف، وهذا وذاك يفرضان المنهج التكاملي القائم – هنا– على التوفيق بين المنهجين: الوصفي والتحليلي، أما أنه وصفي فلأنه يعتمد الاستقصاء والتوصيف لجهود علماء الإعجاز، وأما أنه تحليلي فلأنه يعتمد تحليل المادة التي استقصيت بجهود العلماء وأحاطوها توصيفاً، تحليلاً تفضي نتائجه إلى ما يشبه //اليقين// أو يقاربه، ولعل بعضاً غير يسير من النصوص هي التي تفرض المنهج الذي يخترقها عمقاً وسطحاً، ومن هنا بات لزاماً على الباحث أن يتأكد من أدواته المنهجية، ومن قدرتها على الكشف والاستنتاج، فعلى يمين //الوصف// تكمن ظاهرة **الاستدلال**، وعن يسار التحليل تكمن ظاهرة **الاستقراء**، وهما عمليتان ذهنيتان تغتنيان من الكثافة الفكرية للنصوص، ومن الدربة العملية للباحث الناقد، وتغنيان منهجيته في التعامل مع النصوص والأعمال الإشكالية ذات الصلة بالتحولات المفصلية في التاريخ الإبداعي والفكري للأمة.

وقد اعتمدنا الحديث عن كل عالم من علماء الإعجاز فصلاً، وهذا الاعتماد يتكون بحثنا من مقدمة وخمسة فصول، وخاتمة نثبت فيها خلاصة ما انتهينا إليه.

(9) مصر وزارة الثقافة– المؤسسة العامة المصرية للكتاب بلا تاريخ

ففي المقدمة أثرنا أهمية الموضوع، والمعيارَيْن المعتبرَين في حديثنا عن علماء الإعجاز، وحاولنا أن نشير إلى الباحثين المعاصرين في تعاملهم مع تراث "الإعجاز" على المستوى الفردي لكل عالم، وعلى المستوى العلمي الذي تحقق في المرحلة المنوه بها.

وفي البنية الأساسية، خصصنا الحديث عن "الرماني" ومنهجه التحليلي، ثم عرضنا لأهم مكوناته العلمية، وخصصنا أيضاً في القسم الثاني الاهتمام بمنهج "الخطابي" التحليلي، مشيرين إلى ما عرف عنده بـ //باطن العلة// وإلى عنايته بالجانب الجمالي، ثم عرضنا لفكرة المفارقة بين البلاغة القرآنية، وبين الاجتهاد البلاغي البشري، ثم أشرنا بدقة إلى "المختلف" بوصفه منهجاً إشكالياً يعزز الصفة البلاغية لعلماء ذلك العصر.

وفي القسم الثالث توقفنا عند الباقلاني، على أنه يمثل طور النضج المنهجي المزامن للنضج الفكري، ورغم اطراد منهجه فقد وجدناه متغايراً في إنتاجه، ومع البلاغيين الذين عاصروه، ولعل ما يميز الباقلاني اهتمامه بـ //التلقي// على المستويين: الأول عند العالم البلاغي، والثاني عند الناقد، ونعني تلقي الإعجاز، كما ناقشنا عند الباقلاني اطراد الإعجاز القرآني في المناحي كلها، واختلاف الوتيرة عند البلاغي البشري.

وفي القسم الرابع، ناقشنا منهج التحليل البلاغي عند القاضي عبد الجبار المعتزلي، وفيه حرصنا على جانبين يبدوان طاغيين على أديم إنتاجه، ومرتبطين بمذهبه الكلامي، وهما: العقل واللغة، وناقشنا مشكلتي التكوين المعرفي وأثره في تكوينه والمحكم والمتشابه.

وفي القسم الخامس توقفنا عند إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني، وناقشنا إشكالية //النظم// بوصفها نظرية الجرجاني، ولم يفتنا أن مهدنا بمكونات الجرجاني العلمية، ثم انتقلنا إلى منهجه التحليلي، وأشرنا إلى عنايته بالجمال الجمالي، وإلى عنايته بـ //المعنى// بوصفه غرض الكلام وغاية البلاغة، ثم أشرنا إلى أهمية //التركيب// في منهج الجرجاني.

البلاغة بين الوسيلة والضرورة

الإعجاز بين التحليل والتلقّي

لدى علماء القرنين الرابع والخامس

لم يكن للبلاغة بعد القرن الهجري السابع من شأن يؤهلها لتكون واحداةً من علوم العرب الأولى، ونعني بعد وضع حازم القرطاجني 684هـ - 1285 منهاج البلغاء وسراج الأدباء، فالمرحلة المتقدمة على القرطاجني كانت مشبعة بالفكر والتفلسف، وقد شهد الأندلس نهوضاً فلسفياً كان الأغنى في العصر الوسيط، فابن باجة، وابن حزم، وابن طفيل، فلاسفة وأدباء لم تكن تفاصيل الدرس البلاغي لتغريهم بالانعطاف إليها أو بالعدول عن توجهاتهم الفكرية، وقد بلغت الفلسفة أوجها على يد ابن رشد 1126-1198 م.

ومما ساهم في العدول عن البلاغة انشغالها بقواعدها الداخلية، وقلة الباحثين في المستوى التحليلي، حتى وصل الأمر بأبي عمرو بن العلاء 154هـ -770م أن يشير في وقت مبكر إلى ندرة البلاغيين المالكين لناصية اللغة فقال: //إن العلماء بالشعر أعز من الكبريت الأحمر//[10].

لم يكن زمن أبي عمرو بن العلاء مهيّأً لنمو المنهج التحليلي في البلاغة، وذلك لأن علماء اللغة لم يكونوا قد استكملوا مباحثهم واختبروا مناهجهم بعد، ولم تكن العلوم الوافدة قد توضعت لتساهم في تشكيل الذهن التحليلي الذي يحتاج إلى علوم من خارج اللغة.

ولعل الرهبة من الخوض في " البيان القرآني" كان عاملاً في تأخر الدراسات التحليلية لآيات الذكر الحكيم، والخشية من التحليل المتزيد أو المنحرف، ولذلك تأخر تحليل القرآن الكريم بقصد الكشف عن أسراره البلاغية حتى زمن الزمخشري 467 – 538 هـ، ويُعد الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أولى المحاولات الناضجة في استثمار البلاغة في تحليل آيات الذكر الحكيم، وقد أشار الزمخشري نفسه إلى أهمية كتابة الموسوعي المذكور بقوله:[11]

---

(10) الشاهد من كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني ط3 تحقيق السيد أحمد الصقر- دار المعارف 203

(11) الكشاف- مكتبة العبيكان – الرياض ج1 – ص30 - 1998

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمري مثل كشافي

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء، والكشاف ك "الشافي"

ولم يسلم الزمخشري من انتقادات ابن خلدون ت 808 هـ 1406م فعقد فصلاً في "المقدمة" عن علوم القرآن، وعن التفاسير والقراءات فقال: //ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة، حيث تعرض في آي القرآن من طرق البلاغة... وتحذير الجمهور من مكامنه//[12]

رغم تحذير ابن خلدون فإن "الكشاف" عمل متفرد في البحث عن شوارد اللغة، وعن أبنيتها على مستويات عديدة أهمها الاتساع والعمق، وبالناتج فإن الزمخشري من خلال كشافه قد منح البلاغة مشروعها الأعلى والأهم، وهو تحليل "النص" فالبلاغي من قبله انشغل بحدود أبواب علم البلاغة وتقسيماته وتفريعاته، ولم ينشغل بمداهمة علم البيان، وكان من الأوجب أن ينطلق البلاغيُّ من الانحباس داخل الأبواب إلى فضاء أسرار البيان، وخصائصه، وكيفياته.

وبناء عليه فإن توظيف علم البلاغة في منهجية التحليل هو اعتراف بمهمة هذا العلم، وهي دراسة النصوص البيانية العالية، والانطلاق بها إلى ما هو أبعد من قواعدها ومظاهر جمالياتها.

وليس علم البلاغة وحده هو الذي يُشكل ذهنية التحليل، فثمة روافد قادمة من علوم أخرى، كمناهج علم التفسير وعلوم القرآن، وعلوم أصول الفقه، وهذا تغدو مهمة التحليل البلاغي تمضي باتجاهين: الأول الإفادة ممّا أعطته العلوم الأخرى، والثاني هو تعميق الوعي المعرفي ضمن حدود علم البلاغة، وما يقدمه من مساهمات في تفتيق أسرار البيان، " وكل مفردات هذا العلم في صميم علم تحليل النص، ابتداءً من مقدمة الفصاحة والبلاغة، وانتهاءً

(12) المصدر السابق ص 28

بأصغر فن بديعي، كل هذا وذاك وسائل وأدوات تعينك على استكشاف جوهر النص، ولا تظن أنه تحليل للبناء اللغوي ينتهي بانتهائه، واعلم أن كل نظر في المباني لا غاية له إلا النفاذ إلى المعاني، ومقالة أبي الفتح عثمان ابن جني، وهي: أن عناية العرب بألفاظها، إنما كانت من أجل عنايتها بمعانيها " أصل الدارسة العربية كلها، فليس هناك عناية باللفظ من حيث هو لفظ، وإنما العناية به من حيث هو معبّر عن خواطر القلوب"[13].

ولعل الأمر الجدير التنويه به ضرورة الاهتمام بالمنهج التحليلي في دراسات المعاصرين، وقد أفادوا من تراث القرنين الرابع والخامس، ليس في القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف وحسب، وإنما في دراسة الشعر والنصوص السردية، ونُفضّل أن يكون المنهج التربوي قائماً في بنية العامة على " المنهج التحليلي" ليغدو المنهج إحدى قواعد التفكير عند الناشئة.

ومن الأجدر أيضاً التنويه بأن العلوم العربية تركزت كلها حول " القرآن الكريم" وتعد البلاغة العلم الأقرب إلى دراسة الإعجاز القرآني، وهي قد التزمت الكشف عن كنوزه، وقراءة أسراره، وإرشاد الخاصة إليها والعامة، وما كان للبلاغيين وعلماء الإعجاز في القرنين الرابع والخامس أن يقوموا بدراساتهم لولا المهاد الذي أسسه لهم النحاة كسيبويه، وأبي عبيدة معمر بن المثنى، والفرّاء والأخفش وابن قتيبة في القرنين الثاني والثالث، ويَعُد مؤرخو الأدب الجاحظ 159- 255هـ 868م أول بياني عربي، ومما زاد في أهلية الجاحظ لهذه المرتبة موسوعيته القادمة من علوم عصره المزدهرة في كل جانب، وخاصة " التجريب" الذي تجلى في كتابه " الحيوان" والبيانية التي تجلت في كتابه " البيان والتبين" كما تجلى في كتابه " البخلاء" الحس النقدي باتجاهيه: الأدبي والسوسيولوجي.

وإذا كان الغرض الرئيس للبلاغة تأدية المعنى بأنسب الألفاظ، فإن الغرض الموازي له، بل الأهم هو تمكين المسلم من علوم الدين، ولا ينبغي للمسلم أن يتمكن من علوم دينه إلا بدراسة "الإعجاز القرآني"، ومن هنا نتفهم موقف الجرجاني، وهو يحمل على من زهد بهذا

(13) قراءة في الأدب القديم – د. محمد محمد أبو موسى – ط2 – القاهرة- مكتبة وهبة ص16 - 1998

العم " الإعجاز" في مقدمة كتابه دلائل الإعجاز، يقول: "فلا يوجد علم أرسخ أصلاً، وأبسق فرعاً، وأحلى جنى، وأعذب ورداً، وأكرم نتاجاً، وأنور سراجاً، من علم البيان"[14].

وعندما راجع ابن خلدون 808هـ- 1406م التراث البلاغي، وجد أن إعجاز القرآن هو قطب الرحى، فقال: " واعلم أن ثمرة هذا الفن، إنما هي في فهم الإعجاز في القرآن، لإن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكلام، ومع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها، وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز"[15].

ولم يبتعد المؤرخ عن البلاغي في تحديد مفهوم الإعجاز، فقد ارتأى أحد الباحثين المعاصرين أن " التأليف في جو البيان ولد في جو القرآن الكريم.. وتاريخ البيان يشهد بصحة ذلك. فمنذ أن بدأ أبو عبيدة، كان هناك أغراض على هامش الإعجاز كالدربة في تمييز الشعر، وتحديد صفات النثر... فإن المتعلم إذا فاته هذا العم مزج الصفو بالكدر، وخلط الغرر بالعرر، وساء اختياره، ودلّ على قصور فهمه"[16]

الرماني رائد في الإعجاز ومؤسس

الرماني أبو الحسن علي 296- 386هـ - 909- 994م، نحوي ولغوي، ومتكلم معتزلي، من أهل بغداد، تلمذ لابن سراج ولابن دريد، من مؤلفاته "الألفاظ المتقاربة والمترادفة المعنى"، وله "شرح كتاب سيبويه" وله "الجامع في علم القرآن"، وله "الأسماء والصفات" وله "صنعة الاستدلال". أقام فلسفته اللغوية على تطبيق المنطق على النحو، ومن تلامذته الذين اشتهروا أبو حيان التوحيدي، وأبو القاسم التنوخي.

(14) عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز- ط3- تعليق د. محمود محمد شاكر- القاهرة مطبعة المدني 1992- ص7

(15) المقدمة- تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة- الهيئة المصرية للكتاب 1/38/3/2006

(16) د. علي العماري – حول إعجاز القرآن- مجلة الأزهر شوال 1419هـ - 1999م ص10

ويورد **جمال الدين القفطي** للرماني مجموعة أخرى من المصنفات منها: كتاب "غريب القرآن" وكتاب "المختصر في علم السور القصار" و "جواب مسائل طلحة"، وقد ذكر له ابن النديم كتاب "الألفاظ في القرآن"[17].

ومن الواضح أن العلوم القرآنية تفسيراً وتأويلاً هي المكّون الرئيس لعلوم الرماني، وهذا ما اهله- إلى جانب العلوم اللغوية- للخوض في قضية "الإعجاز القرآني" كما أهلاه لأن ينشئ أطروحة مستقلة.

وأما المكون الثاني من مكونات الرماني فكان أ-علم النحو كعلم عام فقد ذكره معاصروه، فقال ابن النديم عنه " إنه من أفاضل النحويين البصريين والمتكلمين البغداديين" وصنفه **الأنباري** بين كبار النحويين، وصنّفه الزبيدي في طبقة أبي علي الفارسي والسيرافي[18]. ب- كأعلام مرجعيين وكان لهم السبق في تأسيس علوم العصر اللغوية، وأهمهم " ابن دريد- السراج- الزجاج" ومن المعهود عن هؤلاء إنتاجهم العلمي المؤثر، فابن دريد صاحب الجمهرة، والزجاج صاحب " معاني القرآن وإعرابه" وصاحب " ما ينصرف وما لا ينصرف" وهو صاحب "الأمالي" المعهودة، وأما ابن السرج فقد عرف عنه تعقيل النحو، فقد ذكر ياقوت الحموي " أن النحو ما زال مجنوناً حتى عقله ابن سراج بأصوله"[19] ويبدو رأي ياقوت منطلقاً من كتاب ابن السراج " الأصول في النحو" ونورد ما ذكره صاحب الفهرست من كتب الرماني النحوية، شرح مسائل الأخفش الكبير والصغير، شرح الألف واللام للمازني، شرح مختصر المرمي، شرح المدخل للمبرد، كتاب المبتدأ في النحو، كتاب الإيجاز في النحو، كتاب التصريف، وشرح الهجاء لابن السراج[20] ويدل تكرار كلمة "شرح" في عناوين

(17) إنباه الرواة على أنباه النحاة- ط2- تحقيق أبو الفضل إبراهيم – دار الكتب والوثائق القومية- القاهرة 2005 ج2- 295

(18) الفهرست لابن النديم – تحقيق ناهد عثمان- دار قطري بن الفجاءة ص129+ الأنباري نزهة الألباء في طبقات الأدباء – تحقيق أبو الفضل إبراهيم- القاهرة- دار الفكر- 1998- ص276+ الزبيدي الأندلسي طبقات النحويين واللغويين ط2- تحقيق أبو الفضل إبراهيم- دار المعارف ص120

(19) معجم الأدباء، ط1 – بيروت- دار الكتب العلمية 1991-5-341

(20) ابن النديم محمد ابن إسحاق – الفهرست- ص128 -129

الرماني على أنه نصّب من نفسه أستاذاً على نحاة معاصريه، وعلى من تقدمه من خلال الشرح والتفصيل.

أما المكون الثالث فهو علم الكلام

"علم الكلام– لغة– هو المنتظم من الحروف المتميزة، يتواضع عليها، ويطلق على العلم الذي يقتدر معه على إثبات العقائد الإسلامية بإيراد الحجج، ودفع الشبه، وموضوعه هو ذات الله وصفاته، وأفعاله في الدنيا– كحدوث العالم، وفي الآخرة كالحشر، واحكامه فيها، كبعث الرسول، ونصب الإمام، والثواب والعقاب، وقيل: إن موضوعه هو الوجود بما هو موجود، وهنا يشترك علم الكلام مع العلم الإلهي الذي هو أعلى العلوم الفلسفية النظرية، إلا ان هذ العلم يبحث في الموجود بحثاً عقلياً خالصاً، بينما يبحث فيه علم الكلام من حيث أدلته العقلية والشرعية، فدلائله يقينية، يحكم بها صريح العقل إلى جانب صريح النقل[21]

لم يكن خافياً أن "الرماني" و "السيرافي" قد أخذا بالاعتزال مذهباً فكرياً لهما، وقد ذكر **القفطي** جمال الدين أن "الرماني" كان من أهل المعرفة، مفتناً في علوم كثيرة من الفقه والقرآن والنحو واللغة والكلام على مذهب المعتزلة، ومما يدل على صلة الرماني بعلم الكلام عناوين مؤلفاته "الرد على الدهرية" و "أدب الجدل" و "أصول الجدل" و "المنطق" و"مقالة المعتزلة" و"صنعة الاستدلال"[22]

وعلى الرغم من هذه العناوين الدالة على صلته بعلم الكلام المعتزلي، فإن الحدود الواصلة بينه وبين علم النحو أقوى وأعمق، وخاصة في مصطلحاته ك "الاسم والفعل والحرف والإعراب والبناء" وبالمقابل فإن ما يربطه بمصطلحات المتكلمين قليلة ك "المحال" و"التغيير، والسبب" و"النقيض"، وهناك مصطلحان شاعا عند البلاغيين من مؤثرات المناخ الثقافي المعتزلي، وهما: "الحقيقة" والمجاز، مما ساعد على انتشار الكلام المعتزلي هو أنه صار ثقافة

(21) للتوسع راجع الموسوعة العربية الميّسرة – القاهرة– مؤسسة فرانكلين– 1987– ج2– ص1468

(22) إنباه الرواة على أبناه النحاة – مصدر سابق 294– 295– 296

دولة الخلافة، "إن الفكر المعتزلي يقوم على مبدأ التنزيه المطلق للذات الإلهية، وهو مفهوم التوحيد الرسمي، وهذا يتضمن وحدانية الحقيقة، وهي الحقيقة "الشريعة" ذات المصدر الإلهي الأوحد، والغرض من الحقيقة هنا إضفاء طابع القداسة الدينية على حكم دولة الخلافة[23] ومن هنا باتت علوم المعتزلة تشكل الفضاء العام لمعظم المشتغلين بالعلوم اللغوية والشرعية.

منهج الرماني في التحليل

اختط الرماني لنفسه منهجاً، يمكن أن نطلق عليه "الفن البلاغي المفرد" فقد عزل كل فن من فنون البلاغة، وبحث فيه على أنه ظاهرة مستقلة، من دون أن يربط الفرع بالأصل، ورغم إقراره هذا، فإنه ظل في منهجه على "**التكاملية**"، وقد أشار في هذا إلى مشكلة "الإيجاز"، وعندما يبحث في أسرار البيان يدعو إلى الرؤية الكلية، وفي مشكلة الإعجاز في القرآن- يظهر عندما ينتظم الكلام، ويكون كأقصر سورة، وأطول آية ظهر حكم الإعجاز، كقوله تعالى: "فأتوا بسورة من مثله- البقرة 23- فبان الإعجاز عند ظهور مقدار السورة من القرآن"[24] فالإعجاز المفحم للخصم الداحض للحجة، هو ذلك الإعجاز الذي يظهر في سورة كاملة، ولم يكن هذا يعني أن الآية من السورة ليست معجزة، وإنما أراد أن مثل الجملة مما يمكن أن يكابر فيه المعاندون، وإن كانوا يعرفون أنها مغالطة، والقرآن في موقف إظهار الحجة يحرص على الحسم، وأن يغلق باب المكابرة والشغب- فتحدّاهم بما لا يمكن أن يغالطوا فيه، وهو السورة التي يظهر فيها الإعجاز ظهوراً بيّنا[25].

ورغم انشغال الرماني بالجانب الإفرادي لفروع البلاغة وفنونها، فإن الرؤيا السياقية المتكاملة تظهر على أديم أعماله، ولعل المؤثرات النحوية بما تحمله من جزئيات تفصيلية هي الباعث الأهم على انشغاله بالجانب الإفرادي لكل مبحث بلاغي على حدة.

([23]) حسين مروة- النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية – دار الفارابي- 1978- ج1- ص856- 857

([24]) الرماني- النكت في إعجاز القرآن ص78- حققها محمد خلف الله ود. محمد زغلول سلام- القاهرة- دار المعارف بلا تاريخ

([25]) د. محمد محمد أبو موسى- الإعجاز البلاغي- ط2- القاهرة- مكتبة وهبة 1997 ص88-89

يؤسس الرماني فهمه للبلاغة على رفض "أنها مجرد تحقيق الألفاظ على المعاني"، بقوله: "وليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان: أحدهم بليغ، والآخر عيٌّ ... لا يقصر دور البلاغة بتحقيق اللفظ على المعنى- وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"[26] ويبدو واضحاً أن "الإيصال" الذي اشترطه الرماني يعني "**المهارة**" في الإبلاغ، والإبلاغ إنما هو تأدية المعنى إلى المتلقي على الوجه الأنفع الأكمل، وبالصورة اللفظية الأنسب، وهنا يبدي **الجرجاني** رأياً فيمن تقدموه: "إنهم لم يوجبوا اللفظ ما أوجبوه من الفضيلة، وهم يعنون نطق اللسان وأجراس الحروف، ولكن جعلوا كالمواضعة فيما بينهم، أن يقولوا: "اللفظ" وهم يريدون **الصورة** التي تحدث في المعنى والخاصة التي حدثت فيه"[27].

وفي قضية الإعجاز رأى الرماني أن وجوه الإعجاز في القرآن تطهر من سبع جهات، وهي:

1- ترك المعارضة مع توفر الدواعي، وشدة الحاجة

2- التحدي للكافّة

3- الصرفة، البلاغة

4- البلاغة

5- الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية

6- نقض العادة

7- قياسه بكل معجزة

وعند تفحص المتن الذي خصصه الرماني لهذه الجهات، نكتشف أن الوجه الرابع هو الذي استأثر باهتمام الرماني، وهنا نستنتج أن الإعجاز القرآني – البلاغي- هو الإعجاز الذي يقصده الرماني، وبالاستتباع فإن الأوجه الأخرى، إنما تؤول إلى هذا الوجه "البلاغي" ثم يقسم "البلاغي" إلى عشرة أقسام، وهي "الإيجاز، التشبيه، التلاؤم، الاستعارة، الفواصل،

([26]) النكت في القرآن- مصدر سابق- ص75-76

([27]) دلائل الإعجاز ط3- تحقيق محمود شاكر- القاهرة- مطبعة المدني- 1992 ص482

التجانس، التصريف، التضمين، المبالغة، حسن البيان"، ثم فصّل الحديث في كل منها، لكنه خصص منهجه بثلاثة مطالب: الأول قيم الصورة البيانية، والثاني قيم الدلالة والتركيب، والثالث قيم الصوت.

وتبدو عنايته بالصورة البيانية من خلال التشبيه والاستعارة، فيعرف التشبيه بأنه "العقد على أن أحد الشيئين يسُدّ مسد الآخر في حسٍ أو عقل"[28] ثم يقسمه إلى أربعة:

1- إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما وقعت عليه الحاسة

2- إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة

3- إخراج ما لم يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة

4- إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة

وهذه كلها تفيد بأن اهتمامه بالجانب الحسي للصورة البيانية مقدم على غيره، وقد وضح ذلك في الآيات القرآنية التالية: 1- قوله تعالى – النور- 39- والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

2- قوله تعالى – الحديد- 21- وجنة عرضها كعرض السماوات والأرض

3- قوله تعالى – الأعراف- 171- وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظله

4-وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام الرحمن-29

ويرى الرماني أن التقديم الحسي تجلى بأبهى صوره، ففي الآية الأولى شاهد على إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، فالمشبه العقلي أعمال الذين كفروا، صورة بصورة حسية عبر المشبه الحسي- كسراب بقيعةٍ.... ويرى الرماني أن أبلغ التقديم الحسي، إنما يكون عبر التصوير العقلي، وقد بني في كل آية شاهداً على تقسيمه للتشبيه إلى أربعة أقسام.

وفي "قيم الدلالة والتركيب" ينزع منزعاً دلالياً في تفحص بلاغة الكلمة المستعارة، ولم يخرج تفحصه للمفردة عن فضاء الصورة "الكلي" وهنا تتعلق القيم الدلالية والتركيبية بطرائق بناء

([28]) النكت في إعمار القرآن ص80- مصدر سابق

الكلام عبر الفنون، 1- الإيجاز-2- التصريف-3-التضمين-4- المبالغة-5- البيان، ومما يلحظ على نهج الرماني هو اهتمامه بالتقسيم وبالتفصيل، وفي "قيم الصوت" خص هذا الجانب بثلاثة أقسام بين أقسام البلاغة العشرة، وهي: 1- التلاؤم -2- الفواصل -3- التجانس، وهو في تحليله للتجانس الصوفي يربط بين القيمتين: الصوتية والدلالية، وهو هنا يضع الركيزة لبحثه عن مشكلة "الفواصل"

وبالناتج فإن منهجه التحليلي قام على التقسيم إلى وحدات، فباستثناء الإيجاز نجد على الترتيب التشبيه والاستعارة يمثلان وحدة مستقلة، أطلق عليها "قيم الصورة" أما التلاؤم والفواصل والتجانس فتمثل وحدة مستقلة يطلق عليها وحدة "قيم الصوت" أما التصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان فيطلق عليها وحدة "قيم الدلالة".

المكونات اللغوية **والدينية للخطابي**:

لم يخرج الخطابي في تكوينه الثقافي عن الفضاء السائد في عصره، وهو المكّون من علوم اللغة، ومن علوم الدين، وكان أهم مكوناته

1- الحديث النبوي

وهو القاعدة الأساسية لفكر الخطابي، فقد أخذ من شيوخ هذا العلم، من أمثال محمد بن علي الشامي الذي كان حجة في التفسير، ومرجعاً في الحديث، وأخذ العلم بالحديث عن محمد بن داسة البصري، وكان أبو العباس الأصم شيخه المباشر، وكان هذا //محدث عصره بلا مدافعة//[29].

ومن آثار الخطابي // معالم السنن// وفيه شرح سنن أبي داؤود السجستاني، ومن آثاره // أعلام الحديث// وفيه شرحٌ لصحيح البخاري، وله أيضاً // غريب الحديث // وفيه استدراك على أبي عبيدة وابن قتيبة، وفيه تفسير لما غمض من مفردات الحديث، وعلى الصعيد التاريخي كان الخطابي أول من واجه صحيح البخاري شرحاً وتعليقاً، وتفسيراً لما صعب منه.

(29) شمس الدين الذهبي- تذكرة الحفاظ- ط1 – دار الكتب العلمية- بيروت ج3/ 860

2- الفقه الشافعي:

كان أساتذته الذين ذكرناهم على //الشافعية// وكذلك صار تلامذته، ومن الجلّي أن الفقه الشافعي يجمع بين فقه أهل الرأي، وفقه أهل الحديث، وإلى الشافعي يعود الفضل في وضع //موازين القياس// ووضع مبادئ الاستنباط، وكذلك وضع //قواعد التخريج//، وقد تلقى الشافعي // 150- 204 هـ// من الفقه عن مالك بن أنس 93- 179 هـ في المدينة، فجمع بين أهل الحديث في المدينة وبين أهل الحديث في العراق. حيث رحل إليها في عهد الرشيد[30].

3- أما الفضاء الثاني فكان **علوم اللغة**، وأهمها علم النحو، وتظهر إمكاناته في هذا المجال في كتابيه: شرح سنن أبي داؤود، وشرح صحيح البخاري، كذلك تظهر قدراته اللغوية

في كتابه //غريب الحديث// وفي هذا يقول // بأن بيان الشريعة لما كان مصدره عن لسان العرب، لا يصح العمل إلا بإحكام العلم في مقدمته، وكان من الواجب على أهل العلم أن يصرفوا جلّ عنايتهم إلى اللغة ومعرفة وجوهها، والوقوف على مثلها ورسومها//[31].

4- علم الكلام، لم يظهر على أديم مؤلفاته أنه من علماء الكلام، أو من الآخذين بهذا العلم

منهجاً في الكتابة، أو طريقة في التفكير، وإنما تظهر بعض المؤثرات الكلامية في بعض آرائه من خلال //التشرّب// من مفكري عصره ومؤلفاتهم، ويرى بعض الباحثين أن أستاذه القفّال الشاشي كان قد أخذ علم الكلام الأشعري. الذي يمثل الردّ على علم كلام المعتزلة[32].

(30) مناهج التفسير في الفقه الإسلامي – د. عبد الحميد متولي- ط1- شركات عكاظ للنشر والتوزيع 1983 ص53
(31) الخطابي – غريب الحديث- ط2- تحقيق عبد الكريم العرباوي- مكة، مركز إحياء التراث 2001 ج1 ص53
(32) علي مهدي زيتون – إعجاز القرآن وأثره في تطور النقد العربي – ط1- بيروت- دار المشرق 1992 ص45

منهج الخطابي البلاغي

يقوم تفكير الخطابي البلاغي على رفض الغموض الذي ورثه القرن الرابع من الحقبة الزمنية المتقدمة عليه، فالجيل البلاغي السابق عليه نخبوي، لم يكن ليهتم بالتلقي لدى الأوساط العامة، ونلحظ هذه الشكوى من الخطابي ومن الجرجاني في القرن الخامس، وقد ذكر الجرجاني نفسه هذا قائلاً: //إن كثرة الخلط في العلم البلاغي، إنما كان بسبب الغموض الذي اكتنفه، فالتبست مصطلحاته، ودخل في مساحة من التنازع المعرفي جعلت تلقيه مثاراً لمشكلات..// ومن هنا كان الخطابي يؤسس لحل المشكلة عندما رفض النظرة الإجمالية للبلاغة التي تقوم على التوصيف الخارجي دون الولوج في الدقائق والأسرار والعوالم الداخلية.

1- حاول الخطابي تأسيس القراءة المنهجية على أنقاض النظرة العابرة، أو الشاملة التي تكتفي باللمح أو التذوق، وأقام فكرة التحليل الموضوعي القائم على الاستقصاء، ثم التعمق في إدراك معالم الحسن والجمال، وهنا نقول: //قد يخفى سببه عند البحث، ويظهر أثره في النفس، حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به، قالوا: وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع، هشاشة في النفس، لا توجد مثلها لغيره منه، والكلامان معاً فصيحان، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة//[33].

2- كان يبحث دائماً عن الوجه المطرد في إعجاز القرآن، في آي القرآن كله، وبناء على فكرة الاطراد رفض أن يختزل الإعجاز في الإخبار عن عوالم الغيب، والتي تتحقق في الزمان القادم، يقول: // ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها، لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها// فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، البقرة 23//

(33) بيان إعجاز القرآن – مصدر سابق ص24

3- الوقوف على متون من تقدموه، حيث أفضى به التأمل إلى // أن إعجاز القرآن يكمن في بلاغته// دون تحديد سمات هذه البلاغة، يجعله قولاً يتلقاه جيل بعد جيل على نحو من التكرار المستنسخ، يقول: // فيجر فيه إلى التسليم بهذه الصفة للقرآن الكريم على نحو من التقليد، وضرب// من غلبة الظن، دون التحقيق له، وإحاطة العلم به، ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة قالوا: إنه لا يمكننا تصويره، ولا تحديده بأمر ظاهر تعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده//[34].

مختلف... باطن العلة خاصية الخطابي

يرى الخطابي // أن أجناس الكلام مختلفة، ودرجاتها متباينة في المستوى البلاغي، ولكنها – على اختلافها– تنتظم في أقسام ثلاثة، الأول البليغ الرصين الجزل، والثاني الفصيح الغريب السهل، والثالث الجائز الطلق الرسل، ولكن هذه الأقسام تخص الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة.. والقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والقسم الثاني أوسطه وأعقده، والقسم الثالث أدناه وأقربه//[35].

فالبلاغة القرآنية مزجت بين الأقسام المذكورة //فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين، لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة تعالجان نوعاً من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبّو كل واحد منهما على الآخر وفضيلة خص بها القرآن، يسرها الله بلطف قدرته من أمره، ليكون آية بيّنة لنبيه، ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه//[36].

هيأ الخطابي الفضاء البلاغي لمن جاء بعده كأبي هلال العسكري 395هـ، وكذلك مهّد للجرجاني 471 هـ، من خلال إثارته لقضية المعنى، ونظرية النظم، ففي قضية المعنى يقول: //

(34) المصدر السابق ص24-25

(35) الخطابي – بيان إعجاز القرآن- مصدر سابق ص 26

(36) المصدر السابق ص26

وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم ، فأما المعاني التي تحملها الألفاظ فالأمر في معاناتها أشد، لأنها نتاج العقول ، وولائد الأفهام، وبنان الأفكار//[37].

هكذا تصور العلاقة بين اللفظ والمعنى على أنها علاقة تلازم، ولم يخرج في تصوره التلازمي عن تصورات البلاغيين ممن تقدمه منهم، أو عاصره، وهو يبني الصلة بين المعنى والعقل، وهذا التصور كان منسجماً مع رؤيته للإعجاز.

لقد أقام الخطابي فكرته المحورية على المسافة الفاصلة بين البلاغة الإنسانية، وبين البلاغة القرآنية، فالأولى متفاوتة قاصرة، والثانية مطردة كاملة، يقول: // ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين شتاتها، حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرهم//[38] ومن اللافت اقتصار الخطابي على //التنظير// من دون أن يلجأ إلى كثير //من الحالات إلى النماذج التطبيقية، لكنه مهّد لمن يأتي بعده، والذي لا بدّ أنه مفيد من القواعد التنظيرية التي أسسها، وهنا ما سنراه عند الباقلاني، وهو ينحو باتجاه الحديث عن //المختلف// ولكن // مختلفه// مختلف عن مختلف الخطابي.

أما النظم فهو عنده // طريقة في التأليف بين الألفاظ والمعاني، على نحو متلائم متشاكل// وأما طرائق النظم فهي عديدة، قائمة على التأليف الذي يتجاوز إمكانية الحصر، إلى عديد التركيب، وهنا يشير إلى الإعجاز الرباني بقوله: // ولا تكتمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباطها بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن، من وجوهها إلى أن يأتوا مثله//[39].

ومما هو ملحوظ في حديث الخطابي عن النظم نأيه عن العلاقات في الأسيقة والتركيب التي شغل غيره بها

(37) المصدر السابق ص36

(38) المصدر السابق ص28

(39) المصدر السابق ص27

الباقلاني محمد بن الطيب 403 هـ 1013 م

متكلم وفقيه، ولد في البصرة، ومات ببغداد، بدأ مالكياً في الفقه، ثم اعتنق الأشعرية، تحالف مع عضو الدولة البويهي 372هـ – 983م وكان يشجعه على المجادلة مع المعتزلة والنصارى، تولى القضاء فترة، وله أكثر من خمسين كتاباً، معظمها في الفقه، ومنها التمهيد، الأصول الكبيرة، هداية المسترشدين، الإنصاف، دقائق الكلام، الملل والنحل، ولكن كتابه الأشهر هو //إعجاز القرآن// الذي وجده في المغيّبات، أو التاريخيات، وفي النظم الغريب[40].

مكوناته **العلمية**

المكون الأول، هو **الفقه المالكي**، وثمة إجماع بين المؤرخين أنه كان إماماً في الفقه المالكي، فأساتذته مالكيون، كأبي بكر الأبهري شيخ المالكية في زمانه، ومن شيوخه في الفقه النظّار الحافظ إمام المالكية، وهو شاعر وجمّاعة وراوية[41].

والمكون الثاني هو **علم الكلام**... وخاصة علم كلام الأشعري الذي تشكّل على هيئة ردة الفعل على الكلام المعتزلي، وقد أفاد الباقلاني من الطرفين في مسائل المناظرة والحجاج، وكان أعرف الناس بعلم الكلام، وأحسنهم خاطراً، وأجودهم لساناً، وأوضحهم بياناً، وأصحهم عبارة[42]، ومن الجدير التنويه به، هو اهتمامه بعلم الحديث النبوي، وهذا ما ساهم في إغناء موسوعيته، وقد أخذ علم الحديث عن محمد بن أحمد بن عبد الله بن جعفر بن فارس، وأخذ الحديث عن الحافظ الكبير، فأغنى ثقافته بهذا العلم ومصطلحاته.

الإعجاز **ومشكلة التلقي**

حدد الباقلاني مستويات التلقي للإعجاز القرآني، فوجدها أربعة:

(40) الموسوعة الميسرة – مصدر سابق ج1- ص313

(41) ابن عساكر الدمشقي- تبيين كذب المفتري- ط3- بيروت- دار الكاتب العربي ص120

(42) الخطيب البغدادي – تاريخ بغداد- 5- 371- بيروت دار الكتب العلمية – بلا تاريخ

الأول **الأعجمي** الجاهل بالعربية، فهذا غير مهيأ لتلقي الإعجاز، أو تفهمه، وما عليه إلا أن يقلد المستوى المتقدم من أبناء العربية بالفصاحة، فيتبنى ما يتبنونه، ويتلقي ما يتلقونه، يقول: وقد بينا أنه لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية، من العجم والترك وغيرهم، أن يعرفوا إعجاز القرآن، إلا أن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك، فإذا عرفوا هذا، وقرعوا على ترك الإيمان بمثله، تبينوا أنهم عاجزون عنه، وإن عجز أهل اللسان فهم عنه أعجز[43]

الثاني، هو العربي الذي لا يعرف الفصاحة، وهذا كغيره من الأعاجم عليه أن يُقرّ بما أقرّ به أهل الفصاحة بإعجاز القرآن، يقول: //إن من كان من أهل اللسان العربي وليس يبلغ في الفصاحة الحدّ الذي يتناهى على معرفة أساليب الكلام ووجوه تعرف اللغة، وما يعدونه فصيحاً بليغاً بارعاً من غيره فهو كالأعجمي لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن، فهو ومن ليس من أهل اللسان سواء//[44] .

إذاً... الأعجمي، والعربي الجاهل بمستوى العربية الفصيح، يتلقى كلاهما الإعجاز القرآني تلقي المقلد، من دون حق، له في التساؤل، فتلقي الإعجاز يقتضي المعرفة بالفصاحة.

الثالث هو المتوسط في علم العربية.. //فهو ومن كان في صنعة الأدب متوسطاً، وفي علم العربية متبيّناً // وهذا المستوى يمكنه أن يتوصل إلى بعض من تلقي الإعجاز في القرآن الكريم، من بعد مجموعة من الشروط يلزمه بها الباقلاني، وإن لم يستطع تلبية الشروط فعليه بالتقليد كمن تقدمه من أعجمي وعربي جاهلين بالفصاحة.

الرابع هو من بلغ في الفصاحة حداً بعيداً، وقد وصفه الباقلاني بأنه //البليغ الذي أحاط بمذاهب العربية، وغرائب الصنعة، وفي معرفة وجوه الخطاب، وطرق البلاغة والفنون، ومن يبلغ هذا المستوى فليس خافياً عليه إعجاز القرآن، لأنه متى سمع القرآن عرف إعجازه، لذلك قال الله تعالى: // وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه –التوبة 6، فجعل سماعه حجّة عليه بنفسه، فدلّ على أن فيهم من يكون

(43) الباقلاني إعجاز القرآن – ط3- تحقيق السيد أحمد صقر – مصر دار المعارف ص113 بلا تاريخ

(44) المصدر السابق ص113

سماعه إياه حجة عليه – ومن أدرك رغم بلوغه المتناهي في معرفة العربية – علم أن حاله وحال غيره في هذا الباب سواء//[45].

المتلقي **الناقد**

عندما وصف الباقلاني المتلقي بـ //الناقد// كان يفصل بين مستويين من التلقي: الأول هو المستهلك المتذوق، وقد ينبهر، وقد لا ينبهر، والثاني هو الناقد، والناقد لا حدود تمنعه، أو تحول دونه وهو يتناول إبداع غيره، إلا قدراته، والتي تتفاوت بين ناقد وآخر.

ولا يُسمى الناقد ناقداً إلا بعد علمه المفتوح أفقاً، والراسخ عمقاً بشؤون الفضاء الذي يجول فيه، ويصول، وأما الناقد عند الباقلاني فهو المتناهي في معرفة البيان والفصاحة، يقول: // معرفة الكلام أشدّ من المعرفة بجميع ما وصفت لك، وأغمض وألطف، ومعرفة أجناس الكلام والوقوف على أسراره، والوقوع على مقداره، فهو سهل على أهله، مستجيب لأصحابه، مطيع لأربابه، ينقدون الحروف، ويعرفون الصروف//[46].

ولكن الباقلاني يعظم الناقد الذي توجه إلى //الإعجاز// بوصفه الفضاء الأقدس، ولكنه الأصعب، ومسؤوليته كبيرة في الدنيا وجليلة في الآخرة، وكأنه يعظم نفسه، ويعظم علماء الإعجاز ممن تقدموه، يقول: //علم الإعجاز علم عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليس له عشيرة تحميه، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه، وهو أدق من السحر، وأهون من البحر، وأعجب من الشعر//[47].

ورغم حرص الباقلاني على //الموضوعية// في النقد، فإنه لم يُلغ ذاتية الناقد، وخصوصيته في التعامل مع // النص// ليظهر //الإعجاز//، وهو يتصوره على الوجه الأكمل، يقول: // على وجه يؤخذ باليد، ويتناول عن كثب، ويتصور في النفس كتصور الأشكال، ليتبين ما

(45) المصدر السابق ص259- 113- 26
(46) إعجاز القرآن – ط3- تحقيق السيد أحمد صقر دار المعارف – ص244- 184
(47) المصدر السابق - 124

ادعيناه من الفصاحة العجيبة للقرآن... كما نتصور الشمس، ونتيقن تناهي بلاغته كما نتيقن الفجر//[48].

ولأن الباقلاني دعا إلى معرفة الناقد الموسوعية، وإلى الشمول والموضوعية، أعجب بنمذجة الشاعر **أبي تمام**، وذوقه المثقف في الاختيار، لثقة منه أن الشاعر هو أرقى من يتصدى لمسؤولية النقد، لأنه أدرك مسالك اللغة، وضرورات النظام الجملي، يقول: // والأعدل في الاختيار ما سلكه أبو تمام من الجنس الذي جمعه في كتاب //الحماسة// وما اختاره من الوحشيات، وذلك أنه تنكب المستنكر الوحشي، والمبتذل العاميّ، وأتى بالواسطة، وهذه طريقة من ينصف في الاختيار، ولا يعدل به عرضاً يخص لأن الذين اختاروا الغريب، فإنما اختاروه لغرض لهم في تفسير ما يشتبه على غيرهم، وإظهار التقدم في معرفته، وعجز غيرهم عنه، ولم يكن قصدهم جيد الأشعار لشيء يرجع إليها في أنفسها//[49].

لقد أدرك الباقلاني المضمر في //الاختيار// الذي قام به أبو تمام، وهو رفع السوية في //التلقي// لدى فئتين هما: الشعراء، والمتذوقة من غير الشعراء، والاختيار عملية تصفية للشعر الموروث، فما اختاره أبو تمام دخل تاريخ الأدب، وقامت عليه عملية النقد، وما لم يقع عليه الاختيار فقد صار من الصنف المزاح الذي لا يساهم في ذوق المتلقي.

وعند أبي تمام تلاقى المرزوقي 421هـ 1030م مع الباقلاني في أهمية //الاختيار// عند أبي تمام وأثرها في رفع وتيرة التلقي، ولكن المرزوقي أشار إلى الفارق بين شعر أبي تمام وبين اختياره من شعر غيره، فشعره أثار الجدل والاختلاف، وأما اختياره فكان موضع رضا واتفاق، يقول المرزوقي: // وأما تعجبك من أبي تمام في اختيار هذا المجموع، وخروجه عن ميدان شعره، ومفارقته ما يهواه لنفسه، وإجماع نقاد الشعر بعده على ما صحبه من التوفيق في قصده، فالقول فيه أن أبا تمام كان ما يختار لجودته لا غير، ويقول من الشعر بشهوته،

(48) المصدر السابق 47- 184

(49) المصدر السابق ص117

والفرق بين ما يشتهي وبين ما يُستجاد ظاهر//[50] وعلى الرغم من كلام المرزوقي فإن العامل الفردي مارس دوراً فاعلاً في //الاختيار// ولكن //الفردية// هنا دالة – بشكل لا يقبل النزاع- على //الجماعية// فأبو تمام نتاج فردي من تراكمات الشعر والنقد.

القراءة **التأملية وتلقّي الإعجاز**

يوجه الباقلاني إرشاداته إلى الصنف الثالث ممن يتلقى الإعجاز، وهو الذي أطلق على هذا الصنف //المتوسط في الصنعة// فالصنف المتناهي في علوم العربية لا يحتاج إلى توجيه وإرشاد، والصنف الرابع //الأعجمي والجاهل بالعربية// لا يعول عليهما، أما الصنف المتوسط فإنه يحتاج إلى من يأخذ بيده.

يطرح الباقلاني //التأمل// طريقة في القراءة، والتأمل عنده هو معايشة البيان العالي ومعاينته عن قرب، وهذا كفيل بأن يوصل //المتوسط// إلى تلقي الإعجاز، يقول: //فإن أراد أن نقرب عليه أمراً، ونفسح له طريقاً، ونفتح له باباً ليعرف إعجاز القرآن، فإنّا نضع بين أيديه الأمثلة، ونعرض عليه الأساليب، ونصور له كل قبيل من النظم والنثر، ونحصره من كل فن من القول شيئاً يتأمله، ويراعيه حق رعايته فيستدل استدلال العالم، ويستدرك استدراك الناقد//[51].

والباقلاني يؤكد فكرة تتكرر عنده، وهي أن يدرك القارئ المسافة البعيدة بين البيان الصادر عن إمكانيات البشر، وبين البيان الصادر عن //الألوهية// يقول: //إذا كنت في صنعة الأدب متوسطاً، وفي علم العربية متبيّناً أن تنظر أولاً في نظم القرآن، ثم في شيء من كلام النبي، فتعرف الفصل بين النظمين، والفرق بين الكلامين، فإن تبيّن لك الفصل، ووقعت على جلية الأمر وحقيقة الفرق، فقد أدركت الفرض، وصادفت المقصد، وإن لم تفهم

(50) المرزوقي- شرح ديوان الحماسة ط1 – تحقيق أحمد أمين، عبد السلام هارون – بيروت – دار الجيل 1991 ج1-13
(51) إعجاز القرآن – مصدر سابق- ص126

الفرق، ولم تقع على الفصل، فلا بد لك من التقليد، وعلمت أنك من جملة العامة، وأن سبيلك هو سبيل من هو خارج عن أهل اللسان//[52].

وأما القراءة العجلى فلا تكون متكاملة، وليس من شأنها أن تقف بصاحبها على أسرار البيان وخفايا كنوزه، ولذلك كان يرد قارئه إلى التأمل، ولكن كيف يتأمل القارئ؟ يقول: // انظر – بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لبّ، وجمع عقل – في ذلك، فيستطيع لك الفصل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين//[53].

وهكذا يطرح الباقلاني //التأمل// منهجاً يتلاقى عنده القارئ المتوسط والقارئ المتناهي في معرفة العربية وشؤونها، فالمتوسط يحتاج إلى جهد التأمل، والانغماس، بينما لا يحتاج المتناهي إلا إلى التأمل، وهو يعود بمهارة //المتلقي// إلى الطور الأول عن عهود الفصاحة، تلك التي أدركت إعجاز القرآن الكريم من دون أن تتعرف أساليب البلاغة ومذاهبها التي نتجت عن العصور اللاحقة.

المعنى... وصور المعنى

يقوم منهج الباقلاني – فيما يقوم عليه- على الوظائف التي يقوم بها المعنى، فحصرها في ثلاث وظائف، واستقرأ لكل وظيفة مجالاً تنهض به، واشتق من كل وظيفة أكثر من مستوى، وأولى هذه الوظائف هي:

1- الوظيفة التفسيرية، فعلى مستوى المفردات، فسر ما كان يراه ضرورياً غير واضح لدى العامة (المتوسط) حسب تقسيماته، وفي هذا المستوى فسر كثيراً من الشعر وحلّله، ومن ذلك تحليله لبيت امرئ القيس([54]).

فلما أجزنا ساحة الحي وانتهى بنا بطن خبْتٍ ذي حقافٍ عقنقل

(52) المصدر السابق 127- 128

(53) المصدر السابق 154

(54) إعجاز القرآن ص 177

فيشرح: أجزنا (قطعنا)، الخبث = بطن من الأرض، الحقف = رمل منعرج، العقنقل = الرمل المتداخل بعضه ببعض، وهكذا فسر مفردات الأبيات الأخرى، منطلقاً من ذهنية لغوية يؤسس عليها لإدراك المعنى الكلي المتكامل في الشعر أولاً، وفي القرآن تالياً.

وعلى المستوى العام عني الباقلاني بالوحدة الكلية التي تقوم على تآزر المفردات لتصنع وحدة البيان، في الشعر كما في القرآن الكريم، ويعتمد رصد التكرار من غير سورة، ومن هذا القبيل رصده للسور التي تبتدئ بأحرف مقطعة، كقوله تعالى –إبراهيم "1" ال ر... كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد" يقول: "جعل الله معجزة نبيه القرآن وبنى أمر نبوته عليه.. ليقع الاهتداء به، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة، ولا يكون حجةً إلا وهو معجزة"[55]

2- المعنى في البيان البشري

يرى الشعراء الواقع غير ما هو قائم، فتتشكل صور الواقع في الشعر تشكلاً صادراً من ذاتية الشعراء، ومهما بعد التشكل الذاتي للواقع، فإن الأوصال لا تتقطع كلها مع العيان، فالشعر ليس استنساخاً للواقع، وليس انقطاعاً كلياً عنه، وقد وقف الباقلاني أمام مطلع معلقة امرئ القيس

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

يقول حيال هذا: إنه استوقف لذكر الحبيب من يبكي، وذكراه لا تقتضي بكاء الخلي، وإنما يصح طلب الإسعاد في مثل هذا، على أن يبكي لبكائه، ويرق لصديقه في شده برحائه، فأما أن يبكي على حبيب صديقه فأمر محال، فإن كان المطلوب بكاءه أيضاً عاشقاً، صح الكلام من وجه، وفسر المعنى من وجه آخر، لأنه من السخف أن يدعو غيره إلى التغازل عليه والتواجد معه فيه[56].

(55)عجاز القرآن ص 9

(56) إعجاز القرآن ص 160

3- المعنى البياني

إن المقصود من "المعنى البياني" هو المنهج البلاغي في البحث عن المعنى المرتبط بلفظه ارتباطاً "هارمونياً"، ويشكل سياقاً منتظماً، وهذا ما توضح بوضوح في أسيقة الباقلاني، وهو يبين " الإبانة" يقول: "إن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس[57]"، وتكون "أصل تقويمه، وقياس تقديره، فأفضل الكلام ما كان أوفر حظاً منها، لأنها ما دامت غاية وجود البيان فيجب أن تكون قياس فضله، كما تقول جوهر الإنسان هو الإنسانية، فالذي تتوفر الإنسانية بصورته هو الإنسان الأفضل.. وهكذا تدور في الأشياء، وتعرف غايتها، وتقضي قضاء حتماً: أن أفضل الأشياء ما توفر فيه جوهره، وهذا أصل نابت لا ينخرم"[58].

وتبدو عملية اختيار اللفظ الأنسب الأخص بالمعنى هي //جوهر الإبانة//، وهذا ما يمكن لنا استنتاجه من تعريف الرماني للبلاغة //إنها إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ//[59]، وقد استأنف الباقلاني سياق الرماني، ولكن ضمن سياقه هو القائم على ثنائية: **الاستواء والتفاوت**، وقد أحالها الباقلاني إلى مقياس يفصل بين بيان البشر القائم على الاختلاف والتفاوت، وبين بيان السماء القائم على الاستواء والاستعلاء، والمقياس هذا ساعد الباقلاني في إقصاء الشعر عن النمذجة البلاغية، وساعده في تأكيده جلال البلاغة والإعجاز السماويين، يقول: // وإذا كان الكلام إنما يفيد الإبانة عن الأغراض القائمة في النفوس التي لا يمكن التوصل إليها بأنفسها، وهي محتاجة إلى ما يعبر عنها، وكان أحكم في الإبانة عن المراد، وأشد تحقيقاً في الإيضاح عن المطلب، وأعجب في وضعه، وأبرع في نظمه، كان أولى وأحقّ بأن يكون شريفاً//[60].

(57) إعجاز القرآن –المصدر السابق ص 117

(58) د. محمد أبو موسى، مدخل إلى "عبد القاهر الجرجاني" القاهرة، مكتبة وهبة -1982 ص 55

([59]) الرماني – علي بن عيسى- نكت القرآن- مصدر سابق- ص75-76

(60) إعجاز القرآن – مصدر سابق- ص119

يشير الباقلاني إلى قضية //المضمر// بقوله: // التحقيق في الإيضاح عن المطلب//، والتعبير عن المعنى المضمر بأخص ما يناسبه من عبارة، وأنسب التئاماً ما يظهره في صور لغوية.

تلاحم البيان

يقوم منهج الباقلاني على الموازنة بين استعلاء القرآن واستوائه، وبين اختلاف الوتائر في البيان الذي يبدعه البشر، ولهذا دأب على العناية بوحدة البيان وتلاحم مكوناته، واستغرق في تحليل التلاحم من خلال 1- تأليف المختلف 2- حسن التخلص 3- البناء الكلي.

1- وأما // تأليف المختلف// فهو مصطلح وجدناه عند الخطابي، وكان يعني عنده دالاً على تأليف القرآن الكريم لأقسام الكلام المتباينة، فيجمع بين نقيضين هما الفخامة والعذوبة، فالبليغ من البشر يشخص واحدة، ولكن لا يقوى على الجمع بينهما، أما المصطلح فلا يعني عند الباقلاني ما عناه عند الخطابي، ويعني الباقلاني به // رؤيته لآي الذكر الحكيم، وكيف تكون الجملة القرآنية تؤدي بذاتها معنىً تاماً مستوفياً للجمال البلاغي// ورغم الانفصال الحاصل بين جمل القرآن ورغم أن كل جملة تعد وحدة مستقلة، لا يترب معناها على الجملة التالية لها، ورغم الانفصال بين الجمل القرآنية، فإن هناك وحدة رابطة تجمع بينهما، فتنتقل عملية //التأليف// من وحدة الكلمات داخل الجملة الواحدة إلى وحدة أكبر وهي وحدة الجمل وترابطها، فعندما حلّل قوله تعالى الآمة52 من سورة الشورى // وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم// قال: // انظر إن شئت إلى شريف هذا النظم، وبديع هذا التأليف، وعظيم هذا الوصف، كل كلمة من هذه الآية تامة، وكل لفظ بديع واقع//[61] وتبدو الكلمة في قول الباقلاني كأنها الجملة، وأما النظم فأشار به إلى تلاحم الجمل.

(61) إعجاز القرآن – المصدر السابق 187

2- وأما حسن التخلص //التنقل// فيعني به الخروج من غرض إلى غرض، من دون أن ينقطع السياق ويحدث فيه خروج، وقد أطلق عليه البلاغيون حسن التخلص، وفي قوله تعالى: // حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطّول لا إله إلا هو إليه المصير – غافر –1–// يقول الباقلاني: //انظر متى وجدت في كلام البشر وخطبهم مثل هذا النظم في هذا القدر! وما يجمع ما تجمع هذه الآية من شريف هذه المعاني، وحسن الفاتحة، والخاتمة، ثم اتْلُ ما بعدها من الآي، واعرف على وجه الخلوص من شيء إلى شيء من احتياج إلى وعيد، ومن إعذار إلى إنذار، ومن فنون من الأمر شتى مختلفة، تأتلف بشريف النظم، ومتباعدة تتقارب بعلى الضم//[62].

3- البناء الكلي، لقد أفضى // تأليف المختلف// و //التنقل// إلى العناية بالوحدة الكلية للبيان، إذ تعد هذه الوحدة أعلى مراتب التلاحم البياني، فالمحلل يوظف وسائله وأدواته في تحليل الصورة الكلية التكاملية، قاصداً الكشف عن الترابط البياني وبلاغته، ولا يقتصر المحلل في تحليله على جزء دون آخر، وإنما يعمد إلى البناء الكلي من البداية إلى النهاية، يقول الباقلاني: // ثم اقصد إلى سورة تامة فتصرف في معرفة قصصها، وراع ما فيها من براهينها وقصصها، تأمل السورة التي يذكر فيها النمل وانظر في كلمة كلمة، وفصل فصل//[63] ثم قال بعد أن ذكر سورة النمل – 6–7 : // وإنك لتُلقّى القرآن من لدن حكيم... ثم وصل بذلك قصة موسى ع. س وأنه رأى تاراً فقال تعالى: //إذ قال موسى لأهله إني آنستُ ناراً سآتيكم منها بخبر أوافيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون // وقال في سورة طه10 في القصة نفسها: //لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى// وفي موضع آخر: //لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة، من النار تصطلون// فالله – جلّ شأنه– قد

(62) المصدر السابق – 197

(63) المصدر السابق – 189

صرّف وجوه القول، وقلب أشكاله على ضروب، ليفهم البشر بعضاً من قدرته، وليعلمهم عجزهم في البيان وفي هذا إظهار للحجم عليهم كما في قوله سبحانه: //فليأتوا بحديث مثله//

عبد الجبار محمد القاضي 416هـ – 1025م

يعد القاضي عبد الجبار واحداً من أئمة المعتزلة، ومن أئمة التفكير البلاغي، ومن ألقابه //قاضي القضاة// وكان متعدد الألقاب لتعدد مستقياته العلمية، ولتنوع مصادر المعرفة التي حصّل منها، وأهمها

1- علوم القرآن والتفسير، وصفه السيوطي بأنه // شيخ المعتزلة// ولقبه بـ //صاحب التصانيف// وذكره في الطبقة الأولى من المفسرين(64)، وله مجموعة من الأعمال في هذا المجال، ومنها: // متشابه القرآن// حققه د.عدنان زرزور، مصدر عن دار التراث بالقاهرة، وقد حاول فيه الفصل بين المحكم الذي لا يحتاج إلى تأويل، وللتشابه الذي يحتاج إلى تأويل، ومن آثاره // تنزيه القرآن عن المطاعن// نشرته دار النهضة اللبنانية دون تحقيق، ومن المعروف عنه إهماله العقل في التفسير عند غموض //النص//.

2- الحديث النبوي، وقد تلقاه من شيوخ العصر كابن فارس بأصفهان 346هـ، وعن ابن يوسف التيمي بأصفهان 339هـ، وعن الجلاب بالبصرة، والقاضي عبد الجبار آثار في علم الحديث، أهمها // نظم الفرائد وتقريب المراد للزائد//.

3- علم الكلام المعتزلي، ومنه استمدّ قدرته على الجدل والمناظرة، وكان إمام أهل الاعتزال في زمانه، وهو الذي تلقبه المعتزلة بقاضي القضاة، ولا يطلقون هذا اللقب

(64) السيوطي – طبقات المفسرين – ط1 – تحقيق علي محمد عمر – القاهرة، مكتبة وهبة 1396هـ

على سواه[65] كما وصفه ابن خلكان بأنه // المتكلم على مذهب المعتزلة// كان جيد الكلام، مليح العبارة، غزير المادة، إمام وقته، وله التصانيف الفائقة في أصول الفقه، وأهمها تصنيف //المعتمد//، وله //الأدلة//، وله //الغرر لأدلة// وله // شرح الأصول الخمسة//[66] ويعد كتابه الموسوعي //المغني في أبواب التوحيد والعدل// أهم مؤلفات القاضي.

منهج القاضي البلاغي

1- المجاز.... يؤسس لمنهجه في المجاز منطلقاً من قاعدة أساسها() إذا كان للكلمة معنى أصلي، وعدل عنه إلى آخر، سُمي هذا العدول عن الصل تجوزاً أو مجازاً، والتجوز في مبدأ القاضي //هو أن يُستعمل اللفظ في غير ما وضع له في الأصل، فمتى لم يجز استعمال اللفظ إلا في وجه واحد، فقد بطل المجاز أصلاً[67] وفي موضع آخر أكد مقولة مهمة تأسيساً على هذا وهي //جاز في الحقائق أن يُعدل عنها إلى المجاز في كتاب الله//[68] وهو يعتمد وجود الحقيقة المجاورة أساساً للمجاز، والمجاز متفرع عنها، وهنا تبدو الحقيقة الأصل الراسخ المتقدم الذي يصدر عنه المجاز، فالمجاز //خاص// ضمن //عام//، فالحقيقة هي المعيار الذي تخضع له تأويلات المجاز، بل إن وجود المجاز لا يتحقق إلا بها، ولا تصح دراسة المجاز أو التمكن من تمثله، وتلقيه إن لم نضع في الاعتبار كون الحقيقة مجاوراً آخر، يوازيه أو يقاطعه، ويطل كل حين من ثنايا تركيبه، وجوانب دلالته[69].

(65) تاج الدين السبكي – طبقات الشافعية الكبرى- تحقيق د. الطناجي ود. عبد الفتاح الحلو 1993 دار هجر للطباعة والنشر ج5- ص386

(66) وفيّات الأعيان وأبناء الزمان- ط5- تحقيق إحسان عباس – دار صادر- بيروت 2005 ج4 ص271

(67) القاضي الجبار – شرح الأصول الخمسة ط3 – تحقيق عبد الكريم عثمان – القاهرة – مكتبة وهبة 1996 ص436

(68) تنزيه عن القرآن عن المطاعن – دار النهضة الحديثة – بيروت ص255

(69) د. كريم الواقلي – الخطاب النقدي عند المعتزلة – قراءة في معضلة المقياس النقدي- القاهرة – مصر العربية للنشر والتوزيع 1997 ص151

إذاً، الحقيقة في منهج القاضي هي أساس الأداء المعياري، وأما المجاز فهو عنده العدول عن //المعيارية// ويشترك في صحة العدول أن يستدعيه السياق، وبتعبير آخر، فالعدول من الحقيقة إلى المجاز قائم في منهج القاضي على قيام علاقة بين المعنيين: الحقيقي والمجازي، ويطلق القاضي على هذه العلاقة //المشابهة//.

وتقوم المشابهة في نظر القاضي على الربط بين المعنى ومجازاته، ولم يخرج هنا عن سياق عصره من البلاغيين كالرماني، عندما أوضح رأيه في المجاز من خلال كتابه //نكت الانتصار لنقل القرآن//، وقد رأى الرماني الاستعارة قائمة على //النقل//[70]، بينما رآها الجرجاني قائمة على //الادعاء//[71].

ففي قوله تعالى: // وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا – الجن 28// فالإحاطة هنا مجاز، لدى القاضي، فالإحاطة تستخدم لما يحيط بالأشياء، وهذه صفة مادية مجسّمة، وإنما الله جلّ شأنه وصف نفسه بهذا الوصف من حيث هو يحيط بكل علم، جمع المعلومات- فتشبه من حيث علمها أجمع- بالمحيط بالشيء، لأنه من حيث أحاط به يعلم أحواله، وكذلك في قوله: // ولا يحيطون بشيء من علمه – البقرة 255// لأن المراد به أنهم لا يعلمون معلوماته التي يختص بمعرفتها[72] ويظهر من معاينته لكثير من آي الذكر الحكيم أن القاضي عبد الجبار في مشكلة المجاز متأثر بموقفه من نشأة اللغة التي رآها //مواضعة واصطلاحا//، تواضع عليها أبناء اللغة، أما بخصوص اشتراطه قيام المشابهة رابطة أساسية بين المعنى الحقيقي والآخر المجازي، فهو اشتراط قادم من منهجه البلاغي المحض الذي تجاوز به من تقدموه.

---

(70) نكت القرآن- ص85 مصدر سابق

(71) دلائل الإعجاز ص434

(72) القاضي عبد الجبار – المغني في أبواب التوحيد والعدل- الدار المصرية للتأليف والترجمة – تحقيق عبد الحليم محمود- ج5- ص228

2- المحكم والمتشابه... في سورة هود //1// وصف العزيز المتعالي كتابه العظيم بأن آياته جميعهن محكمات //ا- ل- ر- كتاب أحكمت آياته ثم فُصّلت من لدن حكيم خبر// وفي سورة الزمر //23// وصف سبحانه كتابه بأنه متشابه، فقال: الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً تقشعر منه جلود الذين يخشون ربّهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله...// وفي سورة آل عمران -7- وصف – جلّ شأنه- بعض آياته بأنهن محكمات، ووصف بعضهن الآخر بأنهن متشابهات، فقال تعالى: // هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا كلٌّ من عند ربنا وما يذكّر إلا أولو الألباب.

وحول الإحكام يذكر القرطبي **محمد بن أحمد الأنصاري** قولاً **لابن قتادة** //أي جُعلتْ محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل، والإحكام منع القول من الفساد، أي نظمت نظماً محكماً، لا يلحقها تناقض، ولا خلل//[73]، أما **الشيرازي** البيضاوي فيقول في //أحكمت آياته//: // نظمت نظماً لا يعتريه إخلال من جهة اللفظ والمعنى، أو منعت من الفساد والنسخ، فإن المراد آيات السورة وليس فيها منسوخ، أو أحكمت بالحجج والدلائل، لأنها مشتملة على أمهات الحكم النظرية والعلمية//[74].

إذاً... فالمراد من وصف الآيات كلها بالإحكام، هو أنها محكومة لفظاً ومعنىً ونظماً، وإن دلائلها وحججها لا يعتريها الخلل، وهنا يؤكد القاضي عبد الجبار //أنه تعالى أحكمه في باب الإعجاز، والدلالة على وجه لا يلحقه خلل//[75].

(73) الجامع لأحكام القرآن – القاهرة- دار الشعب ج9 ص2

(74) أنوار التنزيل واسرار التأويل //تفسير البيضاوي// تحقيق محمود الأرناؤوط – دار صادر بيروت 2000 ج1 ص451

(75) متشابه القرآن تحقيق د. عدنان زرزور – القاهرة- دار التراث ج1 ص20

وحيال وصفه عزّ وجل كتابه بأنه متشابه قدّم ابن الجوزي رأيين: الأول إن بعضه يشبه بعضاً في الآي والحروف، والآية تشبه الآية، والكلمة تشبه الكلمة، والثاني أن بعضه يشبه بعضاً، فليس فيه اختلاف ولا تناقض(76).

أما وصفه عزّ شأنه بأن بعض آيات كتابه محكمات وبعضهن متشابهات فقد تعددت الآراء في تفسير المحكمات والمتشابهات، والتي تتوزع عليها آيات القرآن الحكيم، وهنا يتقبل القاضي عبد الجبار الرأي المنقول عن عبد الله بن مسعود، وهو: // فأما أن يُجعلَ الناسخ محكماً، والمنسوخ متشابهاً فبعيد، لأن اللغة لا تقتضي ذلك، وقد يكون المنسوخ مما يدل ظاهره على المراد، فيكون محكماً فيما أريد به وإن نُسخ، وقد يكون الناسخ غير مستقل بنفسه، فيكون متشابهاً، وإن كان المراد به ثابتاً//(77).

ولكن القاضي نفسه ردّ الرأي الذي يحصر المتشابه بأنه تلك الحروف المقطعة في فواتح السور، فقال: // فأما قوله عزّ وجل في فواتح السور، وذلك مثل ا ل م ص سورة الأعراف، وا ل م .... ما شكله، فليس من المتشابه، وقد أراد الله عز وجل به ما إذا علمه المكلف كان صلاحاً له... وقد قيل في ذلك إنه عز وجل أراد بهذه الحروف المقطعة أن يبين أن كتابه مركب من هذه الحروف، وأنه ليس بخارج عن هذا الجنس المعقول، وأنه مع ذلك اختص من الفصاحة بما عجز عنه الخلق، وذلك يبين قوة إعجازه، ويبطل قول من يظن أن كلامه مخالف لكلامنا//(78).

ومما هو واضح أن تفسيرات القاضي لمشكلة المحكم والمتشابه تعتمد الأساس اللغوي.

عبد القاهر الجرجاني 471هـ - 1025م

(76) زاد المسير وعلم التفسير –ط3- المكتب الإسلامي – بيروت- 1404هـ ج7 ص175
(77) متشابه القرآن – مصدر سابق- ج1 ص20
(78) المصدر السابق ج1 ص16-17

إن مكانة الجرجاني في علوم العربية، نحواً وبلاغة – لا تضاهيها مكانة لأي من علماء اللغة في عصره، ولا سيما أنه كان متعدد الاهتمامات، فقد عرف عنه علمه بالنحو، ومنه انطلق إلى البلاغة، ورغم أهميته في عصره، وفيما يلي عصره لا نجد له ترجمات مغنية تناسب شهرته وإنتاجه العلمي، وفي هذا يقول د. أحمد بدوي: // وقد حاولت أن أدرس حياة الرجل بمقدار ما أسعفني به ما بقي من تراجمه، وهي قصيرة بوجه عام//[79]

مستقياته العلمية

1- القرآن الكريم، وقد أدت اهتماماته بالذكر الحكيم إلى الإسهام بمجموعة من المؤلفات..

أولها – شرح الفاتحة، وهو كتاب في مجلد واحد، وبحث تطبيقي لنظريته في النظم، ولمنهجه في التفسير.

ثانياً- المعتضد، وهو شرح لكتاب أبي عبيدة الواسطي // إعجاز القرآن// وقد أطلق عليه السبكي // إعجاز القرآن الكبير// وفيه أظهر معرفة كبيرة بأصول البلاغة ومجاز الإيجاز[80].

ثالثاً- الرسالة الشافعية، حققها محمد خلف الله ود. محمد زغلول سلام، ونشراها ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، وصدرت عن دار المعارف بمصر، بلا تاريخ.

2- النحو وعلوم العربية، ما كان لأي عالم في البلاغة ليعرف لولا أنه عالم نحوي، ولهذا وصفه الفيروز أبادي بقوله: //الجرجاني إمام العربية واللغة والبيان//[81]ولعل كثيراً من علماء اللغة قد أخذوا عنه كالخطيب التبريزي صاحب كتاب التصانيف، ومن آثار الجرجاني في علوم اللغة، ا- //الجمل// صدر عن دار الحكمة بدمشق 1992، ب- العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية صدر عن دار المعارف بمصر 1983، جـ - التتمة في النحو نشره طارق نجم عبد الله 1985، ء- المفتاح في

(79) عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، وزارة الثقافة، مصر ص3

(80) تاج الدين السبكي – طبقات الشفعية الكبرى – مصدر سابق ج5 ص150

(81) البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة – تحقيق محمد المصري- جمعية إحياء التراث – الكويت 1407هـ ص134

الصرف حققه على توفيق الحمد 1987، هـ – المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام صدر عن لجنة التأليف والترجمة 1937 بمصر.

منهجه البلاغي

لقد قام الجرجاني بمراجعة شاملة للتراث البلاغي الذي تقدمه منذ القرن الثاني، فوجده عسير التلقي، بسبب الغموض الذي أحاط البلاغيون أنفسهم به، وهذا ما جعل البلاغة علماً نخبياً بعيداً عن التلقي العام، وكأن علم البلاغة على خلاف العلوم الأخرى، التي قدمها أربابها إلى من يتلقاها بأيسر السبل، يقول الجرجاني: // ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى // الفصاحة والبلاغة// والبيبان والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد منها، فأجد ذلك كالرمز من الإيماء والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان اختبئ ليطلب، وموضع الدفين منه فيخرج[82].

هذه المقدمة تسوغ للجرجاني منهجه القائم على الإيضاح والتبين، حتى تغدو البلاغة علماً سائغاً يتلقاه من أراده وسيلة لتمكين نفسه من علوم الدين واللغة، مثلها في ذلك مثل العلوم السائدة في أي عصر، ثم اقتضى منهجه أن يوضّح لمتلقيه أن العلماء الذين تقدموه في هذا المجال قد أعاقوا تلقيه عند مريديه، يقول: // فإنك إذا قرأت العلماء فيه وجدت كله أو جلّه رمزاً ووحياً، وكناية وتعريضاً، وإيماءً إلى الغرض من وجه لا يفطن له إلا من غلغل الفكر ودقق النظر، حتى كأن بسلاً حراماً أن تتجلى معانيهم سافرة الأوجه لا نقاب بها، وبادية الصفحة لا حجاب دونها، وحتى كأن الإقصاء بها حرام//[83] ومن هذا وذاك أسس منهجه على:

أولاً– إقصاء النخبية في الكتابة البلاغية، بغية تعميم هذا العلم، نظراً لأهميته في تلقي العلوم الأخرى، ورغم حرصه على الوضوح فإنه يُقر بالفروق الأسلوبية بين عالم وآخر، وأنه لا

(82) دلائل الإعجاز – ط3- تحقيق محمود شاكر- القاهرة – مطبعة المدني- 1992 ص34
(83)المصدر السابق ص455

سبيل إلى الحد منها، وهذا حدا بعبد القاهر أن يُقرر بأن المعاني النحوية مقصورة على مدار النظم، يقول: // المعاني النحوية ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازدياداً بعدها //[84] وقد بدأ من تحليل الشعر، وأبدى فهماً لـ //الشاعر العظيم بأنه هو الذي يبدأ بتحطيم الشكل والعلاقات والتراكيب العامة، ثم يبني شكلاً وعلاقات وتراكيب جديدة، تنبع مباشرة من تجربته الحية//[85].

ومن منطقة في الكشف عن معاني النحو قام بتحليل الآيات الكريمة، //وقيل يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماءك أقلعي، وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجودي، وقيل بعداً للقوم الظالمين- هود44// حدّد عبد القاهر ثمانية مواضيع، كلها من معاني النحو، إذا أدركناها بأذواقنا أدركنا سر العظمة في الآية، وهي

1- أن نوديت الأرض ثم أمرت

2- أن كان النداء بـ // يا // دون// أي//

3- إضافة الماء إلى الكاف

4- أن نادى الأرض وأمرها بما يخصها، ثم نادى السماء وأمرها بما هو من شأنها كذلك.

5- استخدم المبني للمجهول في كلمة // غيض//

6- التأكيد والتقرير في // وقضي الأمر//

7- إضافة السفينة في قوله //واستوت على الجودي//

8- مقابلة قيل في الفاتحة بـ // قيل// في الخاتمة[86]

هذه البنود غادرت صيغها النحوية، لتدل على معان ومشاعر، وهي تساهم في نقل التصور العام الذي تريده الآية أن تصل للناس، بما تحمله من أحاسيس.

(84) المصدر السابق ص87

(85) قضايا النقد الأدبي – محمد زكي العشماوي- دار النهضة بيروت- 1984 ص329

(86) المصدر السابق ص330

ثانياً... الموضوعية في تحليل الجماليات

دأب الجرجاني في تحليل //البيان// على البحث عن الأسباب التي اقتضت التعبير بهذه الطريقة، من الكلام، ولم تقتضِ غيرها، فلا يكتفي بالقول: إن هذه الجملة تحوي تقديماً أو تأخيراً، أو ذكراً حذفاً، يقول: // ثم إن التوق إلى أن نُقرّ الأمور قرارها، وتوضع الأشياء مواضعها، والنزاع إلى بيان ما يشكل، وحل ما ينعقد، والكشف عما يخفى، وتلخيص الصفة، حتى يزداد السامع ثقة بالحجة، واستظهاراً على الشبهة، واستبانة للدليل، وتبيّناً للسبيل، شيء في سوس العقل، وفي طباع النفس إذا كانت نفساً //[87]، وهو بهذه الموضوعية يقف عند كل تفصيل، ويقصي كل مجمل، من دون الإخلال بقيمة الذوق، فالذوق يعتمد الإدراك الكلي الذي يعنى بالأشياء مجملة، ولا يدخل في التفاصيل، ولهذا عمد الجرجاني إلى الوقوف أمام مستويات النص استحساناً، تحليلاً، تعليلاً، وهذا هو الموقف الأفضل حيث يكشف اتجاه المتلقي وقدراته في تحديد مواطن الجمال وتحليلها[88].

ثالثاً... المعنى

من خلال المثاقفة الأممية في القرنين: الرابع والخامس، صار //المعنى// المحور الأساسي لمنهج **الجرجاني** البلاغي، فرد فنون البلاغة وأساليب القول إلى //المعنى// فقد خرج بنظرية النظم إلى العيان، فكانت عصب جهده البلاغي، وكان المعنى هو المنطلق الذي انطلقت منه، فقد رفض أن يكون النظم توالياً للألفاظ المنطوقة، على أنها أصوات وحروف، //بل النظم من حيث تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها، على الوجه الذي اقتضاه العقل//[89].

ومما يستنتج، أن النظم عند الجرجاني من صنعة الفكر، ومن المحال أن يكون الفكر عاملاً في الصوت، وإنما هو عامل في المعنى، وبناء على هذا فإن الفكر لدى الجرجاني غير متعلق

(87) دلائل الإعجاز – مصدر سابق ص34
(88) د. سالم عباس حدادة // النص وتجليات التلقي //– حوليات الأدب والعلوم الاجتماعية- الكويت 2000 ص45
(89) دلائل الإعجاز – مصدر سابق ص49-50

بمعاني الكلمات المفردة، بل كان متعلقاً بمعاني النحو الكامنة وراء تنظيم الكلام وتكوينه، ومن حيث هو كذلك فهو فكر، يقول: // ومما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذكر، لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفراداً ومجردة من معاني النحو، فلا يقوم في وهم ولا يصح في عقل أن يتفكّر في معنى //فعل// من غير أن يريد إعماله في //اسم//، ولا أن يتفكر في معنى //اسم// من غير إعمال //فعل// فيه، وجعله فاعلاً له أو مفعولاً، أو يريد فيه كلماً سوى ذلك من الأحكام مثل أن يريد جعله مبتدأ، أو خبراً، أو حالاً، أو ما شاكل ذلك[90].

ويرفض الجرجاني أن تكون الصفات التي تجري على اللفظ صفات له في نفسه من حيث هو لفظ، بل من حيث هي معنى قائم فيها ضمن السياق.

رابعاً... التركيب والسياق

كرر عبد القاهر مقولاته حول النظم، والنظم إن هو – إلا توخّي- معاني النحو، وأحكامه على ما يناسب الأغراض التي يبتغيها المتكلم، وهو – هنا بهذا المعنى- جوهر البلاغة وأصلها، فالنظم مكون من عناصر البيان التصويرية والتركيبية كلها، وهنا نقتصر على العلائق التركيبية للكلام وعلى الرؤية الكلية للبيان، يقول عبد القاهر: // متى يعلق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقل، ولا يخفى على أحد من الناس//[91] إذاً السياق هو الذي يمنح الكلمة معناها، فالكلمات لا تتفاضل من حيث هي مفردات معزولة، وإنما قيمتها من النظم وحس الملاءمة بينها وبين جارتها، وفضل مؤانستها لأخواتها.

ومما يتضح من منهج عبد القاهر أن البحث البلاغي أبعد مسافة من البحث النحوي، فالنحوي منشغل ببيان المواقع النحوية للكلمات، أما البلاغي فمنشغل بالكشف عن أسرار هذه المواقع، وعن قدرتها على الإيفاء بالدلالات المستوفاة، فالنحاة مثلاً في حديثهم عن //

(90) دلائل الإعجاز – المصدر السابق ص410

(91) دلائل الإعجاز – المصدر السابق ص55

ما// المتصلة بـ //إن// يكتفون بالقول: إنها كافة، أما البلاغي فيتجاوز ذلك إلى البحث عن الفقه الدلالي لاتصال ما بـ // إن// وعن اقتضاء السياق لذلك[92] وقد كتب الجرجاني فصلاً عن القصر بـ // إنما// أما الرؤية الكلية للبيان، فتتخذ عنده مستويات عديدة.

الأول: **الجزء لغرض الكل**، فهذا المستوى يسير من الجزء إلى الكل حتى يتم تشكيله، يقول: //ما أنت ترى المزية في نظمه والحسن، كالأجزاء من الصبغ تتلاحق وينضم بعضها إلى بعض، فأنت لا تكبر شأن صاحبه ولا تقضي له بالحذف والأستاذية حتى تستوفي القطعة وتأتي كل عدة أبيات//[93] وضرب لهذا المستوى مثلاً من ديوان البحتري[94]

فما إن رأينا لفتح ضريبا بلونا ضرائب مَنْ قد سرى
ت عزماً وشيكا ورأيا صليبا هو المرء أبدت له الحادثا
سماحاً مُرجّى وبأساً مهيبا تنقّل في خُلقي سؤدد
وكالبحر إن جئته مستثيبا فكالسيف إن جئته صارخاً

لا يرى الجرجاني أي استحسان للأبيات سوى أن الشاعر // قدّم وأخرّ، وعرّف ونكّر، وحذف وأضمر، وأعاد وكرر، وتوخى على الجملة وجهاً من الوجوه التي يقتضيها علم النحو، فأصاب في ذلك كله، ثم لطّف موضع صوابه// وهو في هذا ينتقل من التعميم إلى التخصيص، ومن الإجمال إلى التفصيل، أفلا ترى أن أول شيء يروقك منها قوله // هو المرء أبدت له الحادثات، ثم في قوله تنقّل في خلقي سؤدد، بتنكير السؤدد وإضافة الخلقين إليه، ثم قوله فكالسيف، وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ، فإن المعنى لا محالة فهو كالسيف، ثم تكريره الكاف في قوله: وكالبحر ثم أن قرَنَ إلى كل واحد شرطاً جوابه فيه، ثم أن أخرج من

(92) دلائل الإعجاز – مصدر سابق ص354
(93) دلائل الإعجاز – مصدر سابق ص88
(94) ديوان البحتري- تحقيق حسن كامل اصيرفي- مصر دار المعارف بلا تاريخ ج2 ص151

كل واحد من الشرطين حالاً على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله: صارخاً، ومستثيباً، ههنا لا ترى حسناً تنسبه إلى النظم ليس سببه ما عددت، فاعرف ذلك//[95].

الثاني، من مستويات النظم لدى الجرجاني هو ما لا يحتاج **لكي تعرف جماله وبلاغته** إلى استقراء لكامل القطعة، يقول عن هذا المستوى: // ما أنت ترى الحسن.. يهجم عليك منه دفعة، حتى تعرف من البيت الواحد مكانة الرجل من الفضل، وتشهد له بفضل المنة وطول الباع، وحتى تعلم إن لم تعلم القائل، أنه من قبل شاعر فحل، وأنه خرج من تحت صَنّاع، وما كان كذلك فهو الشعر الشاعر، والكلام الفاخر، والذي لا تجده إلا في شعر الفحول البُزل، ثم المطبوعين الذين يلهمون القول إلهاماً//[96]، وقد ضرب عبد القاهر لهذا المستوى ثمانية شواهد، مع تعليق قصير //بالفصل والاستئناف والتنكير، والإشارة والتعريف، وتخير مجموعة من الشعراء.

الثالث، **أطلق عليه النمط العالي والباب الأعظم**، وهو أعلى مستويات تلاحم النظم حيث // تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها النفس وضعاً واحداً، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك، وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأوّلين//[97] فالترابط يكون على مستوى الكلمات وعلى مستوى الجمل مع بعضها حتى يتحد البيان الكلي.

ورأى الجرجاني أن طرائق هذا المستوى في التلاحم يكون في مواقع عديدة، كما في الشرط والجزاء، وعطف الجملة على الجملة، وعطف جملتين على جملتين، وقد أشار إلى نوع من العطف أطلق عليه العطف الأكبر، أي عطف مجموع هذي على مجموع تلك، كما في قوله تعالى سورة القصص 44- 45// وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين. ولكنّا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمرُ وما كنت ناوياً في أهل مدْينَ

(95) دلائل الإعجاز – ص85-86

(96) المصدر السابق ص88-89

(97) المصدر السابق ص 93

تتلو عليهم آياتنا ولكنّا كنا مُرسلين// فقد عطف جملة // وما كنت ناوياً في أهل مدين// وما حوته من جملة على جملة// وما كنت بجانب الغربي//.

خلاصة ونتائج

طاف البحث على نخبة من علماء الإعجاز والتفكير البلاغي، وكان لكل منهم منهج خاص، ولكنهم جميعاً متفقون على أن الإعجاز خاصية قرآنية، ومن أهم ما يُستنتج

أولاً من الرماني

- كان بحثه التحليلي يعتمد كل فن بلاغي بمفرده، وكان قائماً على رصد الأساليب التعبيرية، لذلك كثرت الشواهد القرآنية في رسالته، ففي باب الاستعارة أورد أربعين شاهداً.
- في تحليله للصور التشبيهية كان يقرن ويجمع بين الصور المتقاربة ويستخرج ما بينها من فوارق ودقائق، وكان يركز الحديث على الاستعارة التصريحية دون المكينة.
- في تحليله للتصريف يتلاقى ثقافتان: القرآنية واللغوية النحوية، وكان منهجه في التضمين أهم من غيره من علماء البلاغة.
- اهتم الرماني بـ //التلاؤم – التجانس– التفاضل// وهذا يشير إلى عنايته بالجانب الصوتي في البيان، ولا يفصل بين القيمة الصوتية والقيمة الدلالية.
- لقد خلت رسالة الرماني من الاستشهاد بالشعر //نعثر على ثلاثة شواهد فقط// وهذا يدل على مدى اهتمامه بالبلاغة القرآنية.

ثانياً الخطابي

- أكد المسافة المطلقة بين بلاغة القرآن الكريم وبلاغة العقل البشري، وهذه سمة عند كل من تكلم بقضية الإعجاز.
- قضية الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم أحالها الخطابي إلى مرتكز في التفكير البلاغي، فلم تعد أمراً مسلماً به وحسب، بل غدت عاملاً فاعلاً في بناء المنهج البلاغي في النظر إلى قضية الإعجاز.

ثالثاً الباقلاني

- قام منهجه على فكرة جوهرية هي استواء البيان القرآني، وتفاوت البيان البشري الذي يتفوق في جانب ويقصر في آخر.
- كان //كتاب// الباقلاني موجهاً إلى القارئ المتوسط في علم العربية، فالأعجمي الجاهل بالعربية والعربي القاصر في علومها لا جدوى من محاولة الوقوف بهما على إعجاز القرآن، ويكفيهما التقليد، أما المتناهي في علوم العربية فيكفيه تأمل البيان القرآني ليقف على إعجازه.
- رفض الباقلاني أن تكون فنون البلاغة المهددة طريقاً إلى معرفة إعجاز القرآن، وإنما تكمن معرفة الإعجاز في مواجهة البيان بشكل مباشر، وكأنه يريد إزاحة مباحث البلاغة، وإحلال منهج القراءة والتأمل محلها.
- تنبّه الباقلاني إلى أثر البيئة الزمانية على الإنتاج الأدبي لشعراء البيئة وكتابها، ثم نبّه إلى كيفية تقارب الشعراء والكتاب في السبك في العصر الواحد، رغم اشتراك العصر بسمات مشتركة.
- في قضية //التكرار// اقتصر منهج الباقلاني على البيان البشري، ورأى فيه قيمة سلبية ولا قيمة جمالية فيه ولا بلاغية.

رابعاً القاضي عبد الجبار

- تنازعته غير رؤية، فقد اشترط المشابهة رابطة أساسية بين المعنيين الحقيقي والمجازي، وكان يحتكم إلى رؤية بلاغية أكدها علماء البلاغة، وحينما ينطلق من تصوره لنشأة اللغة يجافي احتكامه إلى علماء البلاغة.
- قام منهج القاضي على التمييز بين المحكم والمتشابه في القرآن الكريم، وكان أساس التمييز لديه هو نظرته إلى العقل واللغة، فالآيات الموافق ظاهرها للدليل العقلي آيات محكمات، وستكون للآيات المخالف ظاهرها للدليل العقلي آيات متشابهات.

- اهتم القاضي بظاهرة الفصاحة وعدّها واحدة من أهم المباحث التي برز فيها منهجه البلاغي، وقد غلب عليه الطابع العقلي، وقام أساساً على الرد على مُفكري الإعجاز والمشككين به.

خامساً عبد القاهر الجرجاني

- كان الجمع بين المضادات في منهج عبد القاهر أعلى مراتب الجمع بين الأطراف المتباعدات، وكان التمثيل أخص الوسائل البيانية التي تلاقى عندها الجمع.
- في تحليله للصورة البيانية يُعنى عناية بالغة بالترابط الكلي لأجزاء الصورة وعناصرها، وتجلى هذا في بحثه عن التشبيه المركب، والفرق بينه وبين التشبيه المتعدد.
- في منهجه التحليلي كثيراً ما كان يحدد مواقع الأساليب البلاغية، والأبنية اللغوية، والمعاني النحوية، من دون أن يكشف عن الأسرار البلاغية الكامنة وراء تلك الأساليب والأبنية والمعاني.
- تركزت جهود الجرجاني في جهوده البلاغية على **الشعر**، وكان تمثيله من القرآن الكريم قليلاً جداً، قياساً على عنوانه // دلائل الإعجاز// وإن كان قد أراد أن يضع كتاباً يدل على سبل الإعجاز لا على الإعجاز نفسه، ومن الجدير التنويه به أن كتاب // أسرار البلاغة// أسبق زمانياً من // دلائل الإعجاز//، فالجرجاني يعتقد أن العلم بالشعر لازمة ملزمة لمعرفة الإعجاز القرآني.
- مع عبد القاهر انتهى الصراع بغلبة أصول المنهج القرآني الذي يرى أن سبب إعجاز النص كامن في نظمه، وطريقة بنائه، وقوي على تطوير المنهج على صعيدين: الأول تركيزه على أسس نظرية ثابتة، الثاني إخراجه من حيز الإعجاز إلى مجال أوسع يضم كل أنماط الكلام الفني، بحيث يكون صالحاً للكشف عن أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز معاً.

مصادر البحث ومراجعه

1- أحمد الاسكندري – تاريخ أدب اللغة العربية في العصر العباسي –ط1–مصر 1912

2- أحمد زكي الأنصاري- أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة – المجلس الأعلى لرعاية الآداب – القاهرة- بلا تاريخ

3- أحمد أحمد بدوي- عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية –القاهرة- سلسلة أعلام العرب 1962

4- ابن أبي الاصبع- تحقيق حفني شرف- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- القاهرة 1963

5- إبراهيم سلامة- بلاغة أريسطو بين العرب واليونان- مطبعة الانجلو- ط1 في القاهرة 1952

6- السيد أحمد خليل- المدخل إلى دراسة البلاغة العربية- دار النهضة للطباعة- بيروت 1968

7- أمين الخولي- مناهج تجديد في النحو والبلاغة والأدب- دار المعرفة ط1-القاهرة 1961

8- الباقلاني أبو بكر محمد- نكت الانتصار لنقل القرآن- تحقيق محمد زغلول سلام- الإسكندرية 1971

9- الباقلاني أبو بكر محمد- إعجاز القرآن- تحقيق السيد أحمد صقرط3- مصر 1962

10- تمام حسان- اللغة العربية- مبناها ومعناها- الهيئة المصرية للكتاب- القاهرة 1973

11- حمادي حمود- تقديم كتاب //عبد القاهر الجرجاني// بلاغته ونقده- حوليات الجامعة التونسية 1976

12- حاتم الضامن- نظرية النظم- منشورات وزارة الثقافة- بغداد1979

13- بدوي طبانة- دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث- البيان العربي- ط3- القاهرة- 1962

14- لطفي عبد البديع- فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث- مكتبة النهضة المصرية 1976

15- عبد العزيز عتيق- في تاريخ البلاغة العربية- جامعة بيروت العربية 1970

16- جابر عصفور- الصورة الفنية في التراث البلاغي والنقدي- دار الثقافة- القاهرة 1974

17- رجاء عيد- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور- منشأة المعارف- الإسكندرية – بلا تاريخ

18- أحمد المتوكل- قراءة جديدة لنظرية النظم عند الجرجاني – منشورات كلية الآداب- الرباط 1976

19- زكي نجيب محمود- المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري- دار الشروق- بيروت- بلا تاريخ

20- عبد السلام المسدي- المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي من خلال البيان والتبيين – حوليات الجامعة التونسية 1976

21- عمر الملاّ حويش- تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية – بغداد 1972

22- عبد القاهر المهيري- تقدم- مساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة – الجامعة التونسية 1974

23- نهاد الموسى- دراسة وتعقيب على مجاز القرآن- مجلة معهد المخطوطات العربية 1976

24- علي مهدي زيتون- إعجاز القرآن وأثره في تطور النقد الأدبي من القرن الخامس إلى القرن السابع- بيروت- دار المشرق1992

25- محمد محمود شاكر- مداخل إلى إعجاز القرآن- القاهرة- مطبعة المدني2002

26- عائشة عبد الرحمن- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق- دراسة قرآنية لغوية بيانية – القاهرة- دار المعارف

27- عبد العزيز عرفة- قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية – عالم الكتب- 1985

28- علي العماري- حول إعجاز القرآن- هدية مجلة الأزهر- 1419هـ-1998

29- عبد الفتاح بسيوني- بلاغة تطبيقية- القاهرة- مطبعة الحسين الإسلامية- 1991

30- محمد أبو موسى- مراجعات في أصول الدرس البلاغي- القاهرة- مكتبة وهبة 2005

31- نعيم الحمصي- البلاغة بين اللفظ والمعنى – من عصر الجاحظ إلى عصر ابن خلدون – المجمع العربي بدمشق- 1950